تأليف ياسر المدني

رسالة في الدين و السياسة

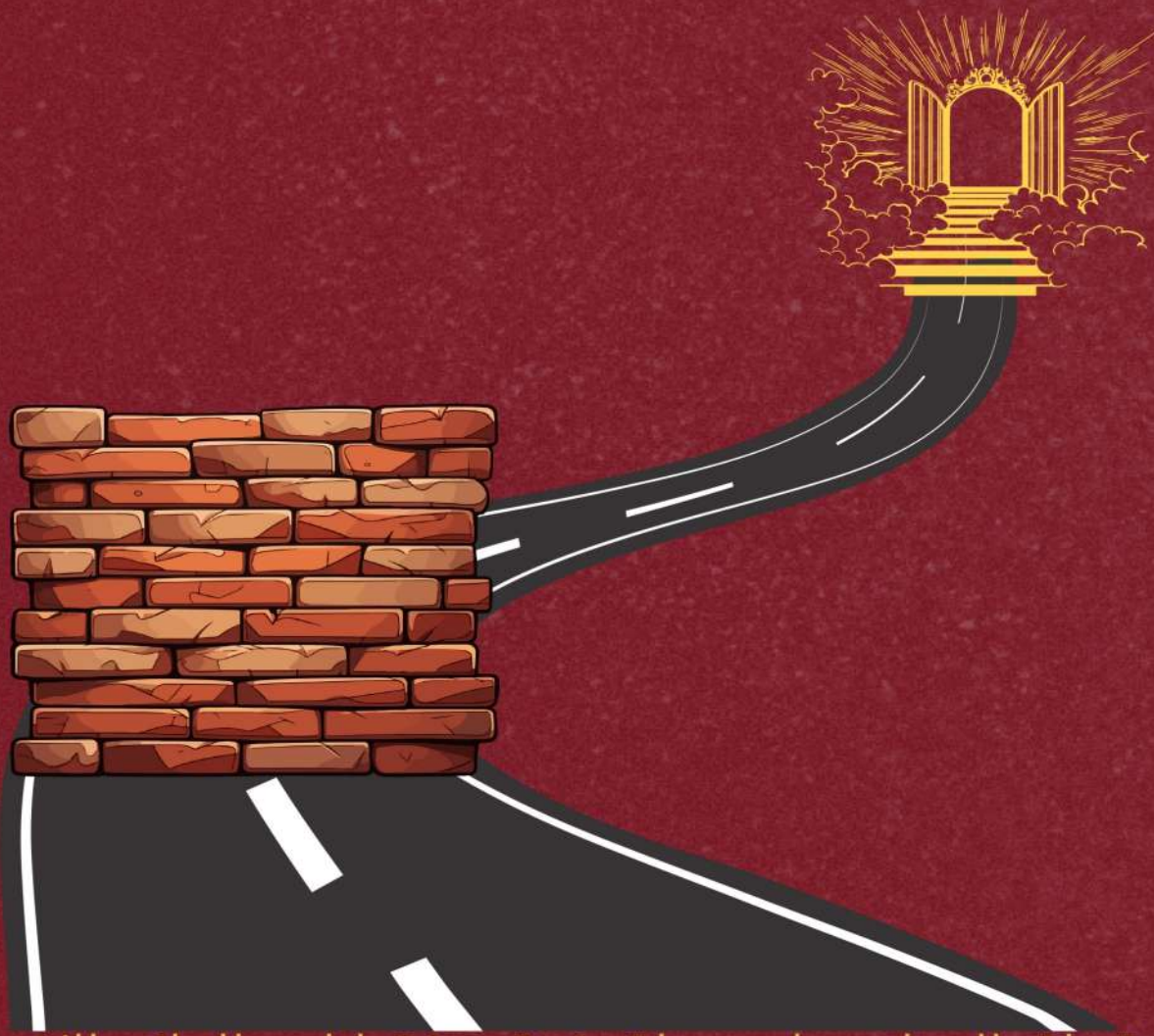

تسلق الجدار، حطمه، حلق فوقه، فقط اعبر للجانب الاخر

المقدمة

الإنسان يسعى في هذه الحياة إلى تكاملين: **تكامل الجسد، وتكامل الروح**.
فمن كَمُل جسده، ربح منه وقتًا؛ ومن كَمُلَت روحه، كسبها دهرًا.
ولا روح تُبصر طريقها، ولا جسد يعرف غايته، **ما لم تكن المعرفة مزيجًا من قلبٍ يُبصر، وعقلٍ يُنير**.

حَلّق في سماء الإنسانية، واترك خلفك الآثار المنسية.
طر بعيدًا، حتى لو تقطّعت أجنحتك؛ لأنك إن سقطت، **سقطت منسيًا**.

لقد بنى بنو البشر المعابد قبل أن تُبنى القيم،
وراحوا يرمون بأفكارهم على كل من صادفهم في هذه الحياة من بشر،
مدّعين أن ما أنتجوه من فكر هو **الحقيقة الكاملة**، وما سواه **وهم سيندثر**.
وهنا ـــ وهنا فقط ـــ **ابتُلينا بكل شرٍّ مستتر**.

أردتُ أن أكتب هذه الرسالة على صورة ثلاثة أبواب:
بابٍ في الدين، وبابٍ في السياسة، وبابٍ ثالث في الحياة.
لكنني جعلت الكتاب في بابين فقط، أما الباب الثالث... **فهو ما يُولد في ذهن القارئ بعد عبوره البابين.**

رفضتُ أن أكتبه بأسلوبٍ أكاديمي كما فعلت في رسالة في التعليم،
بل خرجت بعيدًا عن المألوف، لأنني ببساطة أردت لهذا الكتاب أن يكون **مختلفًا بكل شيء** ـــ حتى في أسلوبه.
وما أتمناه حقًا:
أن أُحدث فرقًا.

ياسر المدني

2025/5/21

باب الاول

الدين

الفصل الأول

بزوغ الدين(1-1)

بعد أن تطوّر البشر وبدأت الحياة تأخذ منحًى آخر، أصبح عيش الحياة أمرًا مهمًّا لدى تلك المجموعة الأولى من البشر، التي كانت أخلاقها مشابهة لأخلاق الحيوانات المحيطة بها. لذلك، كان لا بدّ من وجود نظامٍ لعيش الحياة.
ولكن، كيف لبشرٍ يعيشون حياة الرعب والخوف أن يفكّروا في نظامٍ آخر غير نظام الغابة الذي نشؤوا فيه؟

عندها كان للدين البزوغُ الأول على فجر الإنسانية؛ إذ كان لا بد من وجود نظامٍ يحكم الجميع بروحيّة، لأن النظام المادي في ذلك الوقت كان نظام الغاب القاسي، الذي لا يستطيع البشر العيش الأبدي فيه.

ولكي يتحقق وجود ذلك النظام الروحي (الديني)، كان لا بد أن ينبع من تأمّلاتٍ فطريّة لدى الإنسان، وأسئلةٍ مهمّةٍ احتاج إلى أجوبتها.
فالمخلوق يجب أن يعرف لماذا خُلق، ومن هو الخالق الذي خلقه، لكي يدرك ما الفائدة من وجوده في هذا العالم، ولكي يعرف أن هناك قيمة حقيقيّة لعيش الحياة؛
لأن المخلوق إذا انتُزِعت منه هذه الفطرة سيرفض التمسّك بالحياة، لعدم وجود معنى حقيقي لها. والمثال الواضح على هذه النقطة، هو بعض الأفراد الذين يقدمون على الانتحار دون الأسباب المعتادة، أي دون سببٍ حقيقيّ؛ فقط لأنهم لم يجدوا معنى لحياتهم، فتركوا الحياة التي لم يجدوا فيها شيئًا، ورحلوا من دون أن يتركوا ملاحظة أو رسالة كما يفعل باقي المنتحرين.

المعنى من عيش الحياة وإعطاؤها قيمةً، كان من مهامّ هذا النظام الروحي، الذي يسعى إلى بثّ القيم الفطريّة الإنسانيّة، وإبعاد الإنسان قدر الإمكان عن العالم الحيوانيّ السافل.

عندما جاءت فكرة الدين، كانت المنقذ الحقيقي؛ لأنها حملت في طيّاتها جميع المفاهيم والقيم التي ستنتشل البشر من مستنقع السفالة والجهل إلى عالم الإنسانيّة الجميل، الذي يصبو إلى الأمل والحياة والجمال، وإلى شيءٍ من الراحة التي تجلب معها سحابةً ممطرةً من السعادة، على أرضٍ قاحلةٍ في تلك الصحراء.

لكنّ تجسيد مضمون ذلك النظام الدينيّ تطلّب رؤيةً تجبر تلك المجموعة من البشر، التي يصعب جذبها بالسبل الوديّة، على الانخراط في مسار الإنسانيّة.
تلك الرؤية كانت "رؤية الخير الإجباري". فجميع الأديان انبثقت من رحم الظلم والفساد، أي أنّها حملت في معانيها كلّ القيم الإنسانيّة. لذلك، كانت موجّهةً للأكثريّة من الناس الذين تعرّضوا للظلم والاضطهاد، وقدّمت لهم نظامًا حياتيًّا من الممكن أن يؤمّن حياةً سعيدةً للبقيّة في ذلك المجتمع.

وفي أعماق تلك الأفكار النبيلة، التي كانت تطمح إلى إنسانٍ مثاليّ، خالٍ من أيّ كرهٍ أو حقدٍ لأيٍّ كان، إنسانٍ يحمل في صدره جنّةً من الأشجار الخضراء المثمرة، وفي رأسه شلّالَ مياهٍ لا يمكن قياس طوله —
كانت كلّ الأفكار النقيّة التي خرجت من الإنسان تتجسّد بهذه الصورة الجميلة.
ولكن من كان رسمُه في الخيال، فإن حروف اسمه ستكون محصورةً على الأوراق — أوراقٍ حين تنظر إليها، ترى بياضًا ناصعًا خلّابًا، ومساحاتٍ لا نهاية لها في الزوايا والأطراف.
لكن عندما يلامس القلم تلك الأوراق، تظهر تفاصيلها، وتصبح حدودها مصنوعةً من الجبال.

انطلاق الدين في الواقع البشري(1-2)

انبثق الدين في حياة الناس بشكل غير محددٍ أو دقيقٍ، لكن من المرجّح أن الدين كان له أثرٌ في قيام أول حضارة إنسانية. لذلك، فمن المرجّح أن يكون الدين موجودًا قبل أن تُشَيَّد الحضارات، أي في المرحلة التي كان البشر فيها عبارة عن مجموعات منفصلة غالبًا، تعيش على هيئة قبائل. هذا الشكل أدّى إلى مشاكل كبيرة، منها حروب العوائل من أجل الحصول على المكان الذي يؤمّن لهم وجود الماء والحياة. كانت الحياة آنذاك عبارة عن صراع من أجل البقاء، فإما أن تُقتَل بسبب الحيوانات المتوحشة (السباع)، أو تكون فريسةً لإحدى القبائل البشرية القريبة. لكن هذا التناغم القبلي كان سببه الدين، لأن الدين هو الذي شكّل التآلف بين العائلة أولًا، ثم القبيلة.
احتاج الإنسان إلى نظام اجتماعي يجعل الحياة أقل صعوبة وأكثر إبداعًا، وإدراك البشر لفكرة أن البقاء في نظام الغابة لن يحقق هذه الدوافع التي تدفع بالإنسان إلى الأعلى بشكلٍ فطري. كان وجود الجانب الروحي في تلك الفترة مهمًّا لتشييد النظام

المطلوب، لأن الأسئلة التي طُرحت من قبل البشر لا يمكن الإجابة عنها بالمستوى المعرفي لديهم، مثل السؤال الأصعب إلى الآن: من الذي خلقنا؟

الإجابة على هذا السؤال تتطلب معرفة كبيرة، والبشر لم يمتلكوا المعرفة المطلوبة في ذلك الوقت، مما اضطرهم إلى الإجابة الروحية، وكان الدين هو النظام الروحي الأكثر استعدادًا للإجابة على جميع تلك الأسئلة الغاية في التعقيد والصعوبة: هل هناك حياة بعد الموت؟ ما هي الحياة؟ ما المطلوب منا في هذه الحياة؟

كل هذه الأسئلة وغيرها ستُعلَّق بإجابات روحية، ومن هذه الروحانية ستنبثق قيم إنسانية لجميع البشر، وهذه القيم سيتمسك بها ذلك العقل البدائي لإيمانه بها.

أول الأمور التي استهدفها الدين هي الأمور التي تجعل من المنظومة الدينية قائمة على الإيمان بها إيمانًا قلبيًا، دون الحاجة للتفكير، بسبب الضيق الفكري الذي كان موجودًا. فمن الأفضل للدين بالنسبة لتلك المجموعة من البشر أن يستهدف فكرة الإيمان، وهكذا سيتولد مجتمع مؤمن بقيم محددة لتطبيقها حتى تكون الحياة أقل حدة وأكثر إبداعًا.

وهذا الانطلاق الديني الذي استهدف الإيمان البشري لتثبيت القيم، لم يتوقف عند هذا الحد، وهذا أمر منطقي، كون الإيمان بقيم محددة ليس متاحًا للجميع، لذلك ستكون هناك فجوة كبيرة بين الناس الذين يعيشون في تلك البقعة.

جميع الأديان، إذا تم تتبعها إلى بدايات نشوئها، يُلاحظ أنها اتجهت بكل ثقلها إلى الجانب الأخلاقي المجتمعي، لأن هذا هو المراد منها منذ البداية. الدين لم يوجد لغرض عبادة رب أو تقديس صلاة فقط، بل الدين هو محاولة فطرية لدى البشر حتى يرتقوا إلى الوضع الإنساني، الذي كان من المهم الوصول إليه حتى تنطلق الإنسانية إلى أقصى ما لديها من تشبث بالتطور.

الأوضاع البدائية كانت صعبة للبشر، لكن تمكُّن البشر من التعلُّم كان الفارق عن سائر المخلوقات. ولكن الفارق الأكبر للبشر عن سائر المخلوقات هو قابلية الإنسان على نقل المعرفة الصعبة، التي أخذت زمنًا طويلًا، إلى الجيل الآخر حتى يكمل المهمة التطورية.

هذه الميزة، يا عزيزي القارئ، مكَّنت الإنسان من إيجاد السبل المعرفية أولًا، مثل اختراع الكتابة والقراءة، التي كانت تشكِّل البداية في عملية النقل المعلوماتي.

ثم بعد ذلك، أراد البشر أن يحافظوا على هذه الميزة من خلال نظام حياتي يمنع البشر من العودة إلى النظام الحيواني السابق، وهذا النظام كان الدين، وهو النظام الأنسب لتلك الحقبة الصعبة والمهمة التي مهَّدت السبيل إلى الأحرف التي أكتبها.

من المؤلم للأشخاص الذين لا يؤمنون بالدين أن يُكيلوا كل الفضل في معرفتهم، التي يفتخرون بها، إلى الدين؛ ذلك النظام الذي مكَّن البشر من بناء حاجزٍ بينهم وبين بقية الحيوانات.

جميع الأديان، بلا استثناء، تعتقد بتفوُّق الإنسان على سائر الحيوانات، لأنه امتاز عنها، وكل الأديان شاركت المجتمعات في الحفاظ على تلك الصور الكبيرة العملاقة التي لا مفر منها.

لكن يجب أن نفهم أن الدين قد تمكَّن من إقناع مجموعة من البشر الذين كانوا يعتقدون أنهم حيوانات، ولا يجب أن يفكروا أكثر من ذلك. ما فعله الدين لتحطيم هذه الصورة يدهش العقول؛ أعطى القيم والمفاهيم لتغيير الحياة التي يعيشها البشر، والإيمان وحده لا يكفي. لذلك استخدم الدين الأسئلة الفطرية التي طرحها الإنسان لإجابةٍ جمدت التوحش والتمرد اللذين تعودهما البشر في ذلك الزمان الغابر.

البشر طرحوا سؤالًا غير المعادلة: "ماذا هنالك بعد الموت؟" وعندما أجاب الدين بأن هنالك عالمًا متكاملًا للعيش فيه بكل الملذات، لكن هناك نقيضه أيضًا، عالم من الألم. لم يخطئ هذا المفهوم الذي ابتكره الدين، فهو الذي مكَّن من تغيير النظام الحياتي ونقله إلى مستوى آخر. هذه الفكرة كانت هي الفيصل التي حجَّمت من الحيوانية لدى البشر ورفعت المستوى البشري قليلاً. لا أريد أن أناقش أصل الفكرة؛ هل هو وحي أم اجتهاد بشري عظيم؟ الفكرة كانت تمثل الطفرة الحقيقية لوجود الدين في حياة الأفراد، لأنها أعطت معنى لعيش الحياة بقيم إنسانية.

حينها أصبح الإنسان مسيطرًا على أفعاله بهذه الفكرة التي جعلته يرغب في عيش حياة مريحة بعد موته من خلال العمل بالقيم الإنسانية في هذه الحياة. وأن أي عملٍ سيءٍ غير صالحٍ سيؤدي إلى حياة مريرة قاسية خالدة بعد الموت. ولولا عدم وجود هذه الفكرة لما أصبح هنالك معنى للحياة يعاش من أجلِه. وهذا ما فعله الدين في البداية، وهو إعطاء معنى لعيش الحياة بالقيم الإنسانية الصالحة. وهذه الفكرة، حتى تُطبق، احتاج البشر إلى التعاون الجماعي، حتى يستطيعوا تطبيقها، لأنه من المستحيل تطبيق القيم التي جلبها الدين أو بصورة أوضح أخرجها الدين وشذبها من الفطرة الإنسانية، لا تُطبق إلا من خلال القيام بها من خلال المجموعة المتعايشة بنفسها.

وعند تطبيق القيم من قبل المجموعات، أعطى الفرصة الحقيقية للتطور الاجتماعي والحضاري لتلك المجموعات بعدما جلب الدين لأول مرة فكرة الرقي إلى الأعلى، وحينها بُنيت الأنظمة الإنسانية على تلك الأسس الجميلة التي طرحها الدين، مخرجًا بها البشر إلى الإنسانية.

التطور البشري كان لابد منه لأنه كان هناك نظام يؤمن فكرة وجود الطموح ومعنى القيم لعيش الحياة، وهذا التطور الذي نشأ على الفطرة البشرية،

لأنها كانت هي الدافع الحقيقي للبشر للرقي والتطور، لكن كان لابد من وجود شخص يستمع لصراخ تلك الفطرة من داخل البشر تستنجد للخروج.

لم يكن جميع البشر قادرين على سماع تلك الصرخة، لكن كان هناك بضعة أشخاص استمعوا بحرص وعناية حتى أخبروا الجميع بوجود تلك الفطرة العظيمة وهم الحكماء والأنبياء الذين أوصلوا تلك الصرخة إلى جميع البشر وساعدوهم على أن يعيشوا حياة ذات معنى، كان همهم الوحيد المساعدة ولم يطلبوا شيئًا في المقابل لأنهم تقبلوا تلك القيم التي صرحوا بوجودها وطبقوها ثم رفعتهم مرتبة، ولم يكونوا أنانيين بعدم دعوت باقي الأفراد لتلك المقامات العالية والمشاهد الراقية، وعوملوا بقسوة واضطهاد من المجموعة التي رفضت الإنسانية ودافعت باستماتة عن الحيوانية، وأفعالهم هذه التي فعلوها مع تلك الفئة من الحكماء جعلتهم في النهاية من الخاسرين الضعفاء.

مشكلة الإيمان(1-3)

لن يتقبل الناس الطرح الديني من دون وسيلة إقناع، وكان لابد للأديان أن تثبت أحقيتها في الميدان، من خلال إقناع العامة بالإيمان. والشروع في الحقيقة المشروعة يتطلب البيان، لذلك أخذ الدين الكثير من الوقت لإقناع الأذهان، واقتناع المؤثرين من البشر به سيفتح بابًا لبقية البشر للإيمان. حتى يؤمن الفرد بالدين، يجب أن يسلم له في البداية، ليتمكن من تقبلها ورؤيتها كما هي، من دون أي تزييف، فكرة خالصة لا تشوبها الشوائب، فيرى جمالها ثم يؤمن بها.

الإيمان بالأفكار الظنية، دون النظر والتأمل في حقائقها المعنية، أي رؤيتها رؤية مشوبة وغير حقيقية، لن يعطيك الفكرة الحقيقية للإيمان بها إيمانًا حقيقيًا حتى تطبق القيم التي يتم طرحها. هذا الأمر إذا كان الدين موجودًا منذ زمن بعيد، فما بالك بالدين عند بداية طرحه؟ لن يقبله أحد، لأنه سيغلق نفسه عنه، إلا إذا استمر وجوده بقربه سيدفعه الفضول نحو استكشافه أكثر، مثلما حصل مع الكثير من الأفكار العقلية. إذا كان الشخص المدفوع يمتلك المقدمات الكافية لتقبل القيم الوافية من الدين، سيؤمن به بسرعة، ولكن إذا كان الشخص المدفوع لا يمتلك المقدمات الكافية، سيجتاحه الإيمان ببطء. ولكن هناك أشخاص لا يدفعهم الفضول إلى هذا الدين الجديد بسبب الخوف منه. دعني أذكر مثالًا حاليًا: هناك مجموعة كبيرة من الأشخاص في جميع الأديان

يرفضون قراءة الكتب التي تحمل تعاليم الأديان الأخرى، خوفًا من ذلك الدين ليس إلا. وهذه هي المجموعة الأكثر وجودًا في جميع الأديان، وهي الأكثر تعاسة بالطبع.

الإنسان الذي يجاوره الخوف والرعب من التعرف على الحقائق المطروحة من بقية الأطراف، إنما هو يغوص في قاع بحر الحزن والضياع. وجذر هذه الفكرة وهذا الرعب، هو إيمان الفرد بأن ما استيقظ عليه من حقائق، فإنها حقائق قطعية لا شك فيها، أما من يعارضون الحقيقة فهم على خطأ ولا يجب النظر إلى أفكارهم. وهذه العقيدة الفكرية موجودة منذ القدم، المسلم لا يقرأ غير القرآن، المسيحي لا يقرأ غير المسيحية، وهكذا بالنسبة لبقية الأديان. وأعجب من ذلك وجود هذه الحالة لدى من ادعى حرية فكره وتحرره من قيود الجهل الذي يعتقد أنه الدين، فإن هذا الشخص إذا كان مسلمًا وأصبح ملحدًا، فإنه لن يقرأ غير القرآن، وستكون معرفته قليلة جدًا بالنسبة لبقية الكتب والأفكار الأخرى للأديان. وأنا هنا لا أعني أن كل هذا هو كذلك، لا، ما أقوله أن الكثير من هذا على هذا.

الإيمان الديني في تلك الحقبة كان بسيطًا، وقلبيا أيضًا، لأن المستوى المعرفي لدى البشر محدود بما وصلوا إليه. لذلك، لن تجد معارضة فكرية للإيمان بالدين المطروح، والحقيقة أنك لن تجد حتى الآن معارضة فكرية للقيم الدينية الإنسانية إلا ما اختلف فيه المتدينون بعد شرحهم الشخصي للقيم التي لا يجب أن يجتهد الشخص فيها. والفكرة متأصلة في كيفية الإيمان لا المعارضة. على سبيل المثال: إذا كنت تمتلك عملًا، وهذا العمل متعب ويأخذ كل وقتك ولا يجعل لحياتك طعمًا، ولا تستطيع تركه لأنه فقط المتوفر لديك، وإذا تركت هذا العمل ستعذب أكثر وتموت، ولكن فجأة، وبسبب بعض الأمور، يتوفر عمل أفضل بمرتب أعلى ووقت أقل، أي يمحو كل السلبيات في العمل الذي لديك، هل ستبقى في نفس العمل أم تتركه لتذهب للعمل الآخر؟ حتما ستقبل العمل الآخر الذي يمثل النجاة بالنسبة لك.

هذا هو الموقف المعروض بالنسبة إلى الحقبة الأولى التي أشير إليها، كان الدين هو أفضل حل موجود بالقيم والحياة التي توعد بها. حياة الإنسان كانت صعبة جدًا في تلك الحقبة، وعندما يعرض عليك مثل هذا الحل للتخفيف من تلك المصاعب مع حل واقعي للمشاكل الموجودة، يجب عليك أن تؤمن به.

مقصود الكلام أن الإيمان القلبي الوحيد الذي لم يكن يحتاج إلى فحص وتدبر هو هذا الوحيد. الذي جعل البشر يتجهون للإيمان بالقيم الدينية هو مسألة البقاء. البشر من الكائنات الأسرع تطورًا في العالم المادي، ليست الأكثر تطورًا كما نسمع، هي فقط كانت سريعة في التطور للبقاء في العالم المادي. كل الكائنات الموجودة الآن، ولم

تنقرض بعد، فإن ذلك يعود إلى تطورها للصورة التي تجعلها تبقى في العالم المادي، "البقاء للأصلح". وهذه القاعدة كانت تسيطر على جميع الكائنات التي تدب في هذه الحياة. وكل الكائنات التي لم تتطور انقرضت. الآن، البشر لو تعرضوا إلى نفس الموقف الذي تعرضت له الديناصورات، لن ينقرضوا لأنهم تطوروا إلى الدرجة التي تجعلهم ينجون من تلك الحادثة. أتحدث عن البشر الآن، ولكن لو حدث هذا الظرف في القرن التاسع عشر القريب، لن تكون لهم فرصة للنجاة.

بالمختصر، البشر اتجهوا للإيمان بالدين لأنه كان نتاج التطور للبقاء، لأن الحياة قبل الدين كانت شاقة، لن يستمر البشر فيها إذا لم يبقوا مع كل هذه المخاطر التي كانوا في صددها. ولا أقصد بالبقاء الخلود في هذه الحياة، بل الدين جاء ليشذب من هذه القاعدة التي نتحرك بها، لأن فكرة البقاء لدى الدين ليست نفس الفكرة التي تطمح إليها النفس، إنما بقاء الإرث الذي سيساعد الأجيال القادمة. لذلك، حتم عليه أن يؤمن بالقيم الجديدة التي كانت تدعم فكرة البقاء والرقي.

لكن فيما بعد، أصبح لتطور البشر هدف آخر موازي لهدف البقاء، وهو هدف المخلوق الكامل الذي كان موجودًا في فطرته الأولى. لذلك كان يتطور بشكل سريع ويزداد سرعة كلما تقدم به الزمن، وسيكون أسرع في المستقبل. وهذا التطور ليس للبقاء فقط، إنما لأهداف أخرى أشرت إليها.

تلك الفطرة التي حفزت الإنسان للرقي والعلو على بقية المخلوقات، ورفضت أن تشاركها بنفس المرتبة، بسبب الأنا في أعماق النفس البشرية التي تكون جذورها حيوانية حيواتية التي يمتلكها هذا الكائن المتطور. لكن البشر ليسوا جميعًا يدركون تلك الفطرة إلى الآن، فقط القلة من المفكرين والحكماء يدركونها. لذلك، أنت يا من تقرأ وتعتقد أنك أعلى مرتبة من سائر الحيوانات، لأنك تمتلك بعض الاختراعات التي تمكن من إبداعها العلماء والمفكرون الأموات، ولم تدرك تلك الفطرة التي دفعتهم ليصبحوا علماء ومفكرين وحكماء، فإنك لست سوى حيوان يجهل أنه حيوان، غارق في وهم عالم اللا إمكان، وتسير في كل مكان، كأنك سيد كل زمان، وأنت لست على نفسك بأمان.

فقط الحيوانات هم الذين لا يمتلكون الفطرة التي تدفع إلى الرقي، والبشري الذي لم يصل لصوت تلك الفطرة لم يتجاوز مرتبة الحيوان.

وأنا هنا سأصرخ في وجوه جميع البشر عسى أن أيقظ شخصًا واحدًا ليسمع صوت فطرة القيم داخله، تجعله ينطلق ليكون إنسانًا كاملاً. حتى لو بح صوتي، سأبقى أصرخ ما دام لي صوت وقيم أسير عليها. والأوهام والخدع التي تظل بها الحياة

المادية جميع المخلوقات، لن أصدقها. وسأبقى مقاومًا لها، لأني في النهاية إنسان يرفض النزول إلى مرتبة الحيوان.

لذلك كان لابد أن يوجد نظام ينتشل البؤس البشري من مستنقع الجهل الحيواني إلى فردوس الأماني. والحقيقة التي يجب على الجميع الاعتراف بها أن ما نحن فيه من تطور ورقي يعود لتلك الفكرة الأثرية التي انبثقت من الحضيض، أو انبثقت من القدير، حينما كان الجميع قد استقر بالحضيض، لتعطي للبشر الأمل في السعي في هذه الحياة. وهذا الأمل أخذ يتطور ويكبر وكل الفضل يوجه إلى الحكماء الذين استمعوا إلى الحقيقة المكنونة في داخل الإنسان الأثري.

والإيمان حقيقة نقلتنا من القاع إلى الأعلى، ويجب علينا النظر دائمًا للأعلى، والرقي بالأخلاق القيمة التي بدأ كل شيء لدينا منها. ويجب علينا مقاتلة كل من يقف دون هذه الأسس التي نحتت القيمة الحقيقية للإيمان بالقيم الإنسانية، لأنها هي الملاذ الأخير والحقيقي من كل الشرور التي تحول دون رقي البشر إلى المخلوقات الكاملة.

الدين عندما جاء كان رد فعل منا على الحال التي كان البشر يعيشها، وسيبقى هكذا إلى أن تنفني بنا الحياة التي عمرناها، ومن سيفني هذه الحياة هم البشر الذين يرفضون أن يرتقوا بواسطة هذه القيم العظيمة إلى الدرجات العليا.

هناك حكيم لا أريد ذكر اسمه الآن، كان يعتقد أن الحقيقة لا تقاس قيمتها بالجهد المبذول لإيجادها. **لا يمكن قياس ارتفاع الجبل من خلال الجهد المبذول للصعود على ذلك الجبل**. يعرف الإنسان الحقائق فقط من خلال التأمل في حاله، التأمل في نفسه. لن يصل الإنسان إلى الحقائق التي يحتاجها لو قرأ كل كتب العالم، وفتش عن المعرفة في كل بقاع العالم، وبذل جهدًا لم يبذله أحد في العالم، فإن القيمة للحقيقة التي اكتسبها لن تساوي شيئًا. أما قيمة الحقيقة التي اكتشفها في التأمل والتفكير بحاله ونفسه.

غموض المضمون(1-4)

قد يسأل الكثير الآن، إذا كان الدين قائمًا على مثل هذه القيم الإنسانية الجميلة، فلماذا نقرأ في التاريخ عن المصائب والمجازر الإنسانية التي أحدثها الدين؟ أحداث مروعة لدرجة أنك إذا نظرت إلى الدين من جميع الجوانب، ستراه شرًّا خالصًا، ليس

من صنع أي إله عطوف، بل هو نتاج شيطان مريد. دعني أوضح أمرًا، جميع الأديان جاءت بقيم ساعدت البشرية في الكثير من الأوقات الضيقة، ولكن الإيمان غير المشروط هو الذي أدى إلى إحداث فجوة هائلة بين القيم التي جاء بها الدين والفهم الخاطئ لتطبيق تلك القيم، والأغلب يكون مصحوبًا بالتناقضات الفعلية للقيم عند تطبيقها. على سبيل المثال، إحدى قيم الأديان هي نبذ العنف والقتال، ولكن هناك أيضًا إحدى تلك القيم التي ترفض فعل الزنا وتكره أن ينتشر في المجتمع، وهذه القيم الأخلاقية مهمة للمجتمع وهي سبب قيام الأديان في الأساس، ولكن عندما يجيء شخص متدين ويمسك الشخص الزاني فيقتله، هذا التناقض بالتطبيق وفهم القيم الأخلاقية التي طرحها الدين، هو بسبب الإيمان غير المشروط للأشخاص المؤمنين، وتعدد الأفهام في تلك القيم الموجودة، لأن المؤمن الحقيقي لتلك القيم، والذي يفهم معاني القيم من داخله باعتباره إنسانًا يمتلك هذه القيم في داخله، فإنه سيجد حلاً قيمًا لتلك القيم المتضاربة.

إن مضمون القيم الدينية لا يفهم من دون الرجوع إلى مصدر تلك القيم والذي هو داخل الإنسان الحقيقي. تفسير تلك القيم وتطبيقها يختلف من فرد إلى آخر حسب فهم الفرد لتلك القيم، لذلك في المسيحية على سبيل المثال، ستجد شخصًا يعتقد أنه من الواجب عدم ممارسة الجنس قبل الزواج باعتباره مبدأ دينيًا أخلاقيًا، بينما تجد شخصًا آخر يعتقد أنه لا ضير أن يمارس الجنس مع من يحب لأنه سيكون في المستقبل متزوجًا، بينما هناك شخص آخر يعتقد أنه لا ضير أن يمارس الجنس في أي وقت شاء ومع من يشاء. كل هذه الأنواع من الأشخاص يتبعون نفس الدين، لكن قيمة الجنس لديهم اختلفت في الفهم، وكل شخص لديه القناعة بأن الفهم الخاص الذي امتلكه هو الأنسب أو الأصح.

فهم المضمون بشكل شخصي سيؤدي حتماً لهذه المشكلة المريرة، وحل هذه المشكلة هو الرجوع إلى البرهان والدليل القاطع للوصول للفهم الحقيقي لمضمون القيمة. وهذا الطريق العسير، الذي لا يمكن فهمه بالأفهام أو إدراكه بالأذهان، يقودنا نحو النسيان، لأن الإنسان إذا ما اختار طريقًا فيه صلاح، فإنه سينسى كأنه لم يكن، كورقة قد احترقت ولم يبق منها سوى الرماد الذي نشرته الرياح.

اختلاف فهم المضمون سيء، لأنه سيكون حجر الأساس لانقسام الاعتقاد الديني داخل الدين، لأن فهم المضمون سيفتح بابًا شاسعًا أمام الاجتهادات الشخصية، التي تكون مختلفة باختلاف المجتهد، ولكل مجتهد نصيب، لكن ليس من أجر العامة من نصيب، لأنها تتبع كل مجتهد تؤمن به، أي إنها تقول وتفعل ما لا تعلم. أفضل حل لهذه المشكلة هو عدم الاجتهاد من قبل الجميع، والاتفاق على مجتهد واحد يتم الرجوع إليه

في شرح المضمون، ولكن هل البشر عاقلون لهذه الدرجة؟ بالطبع لا، سيجتهد كل من هب ودب، والحمقى خلفهم فارغين عن أي اشتغال باحثين. لكن المهم أن يتبع البشر من يجتهد بقربهم، وهناك مجتهدون ماتوا ولم يتبعهم أحد في حياتهم، لكنهم بعد موتهم أصبحوا للجميع من التابعين والمجتهدين، وخير مثال على ذلك كارل ماركس الذي مات ولم تُطبَّق أفكاره في العقول حتى، ولكن بعد موته بقرن، قامت دولٌ بفكره، وإلى الآن يلهج الجميع باسمه، بينما هو في حياته كان يعتمد على بعض أصحابه المتمكنين ماديًا في مساعدته على نشر كلامه، وهذا مثال على الكثيرين وأبرزهم أيضًا باروخ سبينوزا الذي أخذ اليهود يبسقون على قبره ويلعنوه، ولكن بعد مرور الزمن أصبح لاسمه جامعات وشوارع واتباع وشواهد. الاجتهاد لا يضيع أثره إن كان اجتهادًا يؤثر في النفوس والعقول مهما كان من أثر جيد أم سيء، فإن هذا الاجتهاد لن يضيع أو يختفي.

الدين كان ولا يزال عرضة للفهم المختلف باستمرار ولن تجد الحقيقة مشرعة أبوابها بوجه الجميع، وأكثر الأديان التي إلى يومنا هذا عرضة للفهم الخاص بالأفكار الشخصية هي الأديان السماوية أو الأديان الكتابية، أقصد بها جميع الأديان التي تمتلك مشرعًا واحدًا وكتابًا ورسالة سماوية واحدة، ولا أقصد الأديان الثلاثة فقط، الإسلام واليهودية والمسيحية، بل جميع هذه النوعية من الأديان. الفهم المستمر بوجود الرؤية الشخصية سيكون حقيقة عجيبة، على سبيل المثال في الديانة المسيحية التي هي أكثر الديانات حفاظًا في السابق، رغم التصدير الإعلامي الحالي بكونه دين المحبة والتسامح، كانت المسيحية تحتقر في الزمن السابق وتحرم الشذوذ الجنسي، لكن في السنين الأخيرة فاجأت الكنيسة العالم باعتبارهم غير مخطئين ولا مذنبين، وشرعت زواجهم بقداسة الكنيسة التي كانت تصدر فتوى القتل في كل شخص يُقال عنه حتى لو كان بدون دليل أنه شاذ جنسيًا. هذا الانحراف في التشريع القيمي للدين الثابت، دليل ساطع كسطوع الشمس بأن فهم القيم قابل للتأويل، وهذا يعني إما أن القيم الدينية الأساسية غير ثابتة، أو أننا لم نكن نفهم من البداية تلك القيم. وأنا أقول إن هذه القيم إذا كانت متروكة بيد البشر ليقرروا ماهيتها، فإن هذه القيم ليست لها قيمة قائمة.

التأثير العام للقيم المشهورة التي يعتقد بها الناس الآن إذا تعارضت مع الدين سترفض قيم الدين، وإن رفضت قيم الدين القديمة، فهذا يعني هجر الدين، وهجره مضر لمتدينيه، فيلجأون إلى التوفيق بين قيم الدين الأساسية والقيم الحديثة التي يروج لها البشر في عصر العولمة الحالي، حتى لو كانت متناقضة خوفًا من هجران الدين.

وكل الأوهام التي يبنيها الدين والمجتمع في التوفيق بينها هي أساس انهيار المنظومة الحضارية لذلك المجتمع، إما بظهور فكر حضاري ينفي الحضارة السابقة،

أو بالاندثار الحضاري المعتاد، وكلا الأمرين غاية في الخطورة، لأن ولوج حضارة في وسط حضارة لغرض نفي الحضارة القديمة، فإن هذا سيعصف بالمجتمع عصفًا شديدًا، وإذا كان الانهيار للحضارة فقط، فإن المجتمع سيفقد الكتلة الإنسانية الوحيدة التي تمسك البشر من الجنون والضياع، وهذا سيؤدي بدوره إلى عودة مملكة الحيوان مرة أخرى، وتأكل الأخضر واليابس وتندثر الحضارة إلى فترة طويلة لقيام الفطرة مرة أخرى بمساعدة البشر للعودة للإنسانية، وهذا سيتطلب وقتًا طويلاً، وحسب بعض الحضارات السابقة، فإنه من الممكن أن لا تعود إلى ما كانت عليه مرة أخرى مطلقًا.

الحاجة البشرية الملحة للتغيير تكون بسبب عجز الدين عن تقديم أجوبة وافية للأسئلة الحديثة المطروحة، وغالب هذه الأسئلة هي أسئلة مادية، وبسبب القيادة غير الصحيحة من قبل رجال الدين، فإن السفينة التي أبحروا بها وصلت إلى مكان لا عودة فيه ولا ضالة، فبقيت تائهة بسبب القيادة الجاهلة للقادة.

الفصل الثاني

نموّ الدين(2-1)

بعد أن تبين لنا كيف بزغ الدين داخل المجتمعات الأولية، رافعًا المستوى البشري إلى النقطة التي أحدثت الثورة البشرية الخالصة، ورغم الأحداث الكثيرة التي مرّ بها الدين حتى وصل إلى مرحلة اعتناق الناس له بشكل عام ـــ أي الاعتناق غير المشروط ـــ فإن مسألة نمو الأديان الجديدة التي سنتناولها هنا تخص جميع الأديان بلا استثناء.

لن أشير إلى المجتمعات الأولية فقط عند طرح فكرة النمو الديني، لأني أرى أن كل دين لا يختلف عن غيره في موضوع النمو، بغضّ النظر عن الجزئيات المختلفة التي ترتبط بمواضيع أخرى مؤثرة.
وقد يُثار الآن الإشكال الآتي: إذا كانت كل الأديان تمتلك نفس المنهجية الطبيعية في النمو، فلماذا انحصرت بعض الأديان وتقلصت حتى انقرضت؟

يمكننا القول ببساطة إن نمو الدين يعتمد على مدى اتساع المبادئ التي يشرّع بها. فهنالك أديان شملت تشريعاتها جميع جوانب الحياة المادية والروحية، حتى بات من غير الممكن تشريع مسألة مستحدثة من دون الرجوع إلى ما سبق من تشريعات. مثل هذه الأديان لا يمكن وصفها إلا بأنها نامية، وليست فقط تنمو بوتيرتها المعتادة.

وكذلك فإن من المغالطات الشائعة بين المجتمعات قول بعض سفهاء العقول إن الأديان التي تنمو بسرعة هي الأديان الحق، انطلاقًا من الفكرة القائلة: "إذا أجمع الناس على أمرٍ فهو الحق". وهذه مغالطة واضحة.

الولوج الديني في بدايته حركة فطرية إنسانية طبيعية، تنبع من معارضة الأنظمة الاجتماعية الظالمة للناس جميعًا ـــ وأقصد بالإجماع: المظلومَ ظاهرًا، والمظلومَ جهلًا.
وهذا النظام المعارض لا ينمو إلا بوجود أرض خصبة تجعله واقعًا ملموسًا، وأقصد بالخصوبة أمرين:

1. **حكيم** من بين هؤلاء الناس يأتي لهم.

2. **مجموعة** من الناس لديهم القابلية على تقبّل أفكاره والسير بها إلى الأمام.

هاتان هما ركائز نمو أي دين؛ فدين من دون حكيم يأتي به لا وجود له، ودين من دون جماعة تتقبله وتقاتل من أجله لا وجود له أيضًا.

وأود أن أوضح أمرًا كي لا يختلط على البعض: عندما أقول "حكيم"، فأنا أقصد النبي أيضًا، لأني أعتبر النبي حكيمًا بطبيعته. من يأتينا بالحكمة فقد أتانا بالخير كلّه، وهذا الخير يأتي من النبي والعالم على هيئة حكمة.

نموّ أي بذرة في الأرض يحتاج إلى عدّة عوامل: خصوبة التربة، نوع البذرة، الجو المحيط، الماء، والعناية الحقيقية. لكنّ الشيء الأهم والوحيد في هذه العملية هو **البذرة**، لأنها التي ستنمو وتحمل بداخلها صورة الشجرة المثمرة.

وبناءً على هذا، فإن بذرة الدين هي **القيم الأخلاقية**، وهي التي ستنمو وتزدهر وتُحدث التغيير. لأن تغيير النظام الفاسد لا يمكن دون تغيير الأخلاق الفاسدة التي كوّنت ذلك النظام.
فلا توجد أمة أخلاقها حسنة ونظامها الاجتماعي والسياسي فاسد. إن فساد الأنظمة نابع من فساد أمة تلك الأنظمة.

ولا يمكنك القول إن "دار فلان دار فاسدة" إلا إذا ثبت أن جميع أفرادها فاسدون. أما إن ثبت فساد شخص واحد فقط، فيقال إن فلانًا فاسد، لا أن الدار كلها كذلك.
ولكن إن ثبت فساد جميع أفراد الدار، ما عدا شخصًا واحدًا، يمكن القول إن الدار فاسدة **ما عدا فلان**. لأن وجود استثناء صريح في القول أو الفعل يمنع الحديث بالإجماع. أما إن كان ذلك الشخص الصالح لا يُعلن معارضته، فيُقال إن الدار فاسدة دون استثناء.
لذا، فإن فساد النظام ناتج عن فساد الجميع، ما عدا من يعارضه.

القيم الأخلاقية التي يأتي بها الدين ليست اختراعًا بشريًا يمكن نسبته إلى شخص بعينه. حتى لو جاء أخرق بدين جديد وصدّقه بعض ضعاف العقول، فلن يأتي بقيم جديدة راسخة تنسب إليه. نعم، قد يأتي ببعض الأخلاقيات التي يجتهد فيها، لكنها ستبقى محلّ نقاش.

فأي شخص يبدأ بالتعريف عن دينه، يبدأ بالأخلاقيات الثابتة: سيقول إن القتل خطيئة، والكذب خطيئة، وهكذا... وهي أخلاقيات يؤمن بها كل دين.

إن منبع القيم الأخلاقية في الإنسان هو الفطرة التي كانت ولا تزال في أعماق البشر عبر العصور.

أما:

كيف أتت هذه القيم إلى أعماق الإنسان؟

وكيف للإنسان أن يمتلك كل هذه الثقة ليقول إن تلك القيم هي الحق، ويجب القتال من أجلها؟

فكل هذه الأسئلة سيتم الإجابة عنها في رسالة خاصة، في وقتٍ ما.

تثبيت الجذور(2-2)

كل نبتة مهمة لأي مزارع، وكل مزارع مهتم بجذور تلك النبتة، لأنها تمثل البداية الحقيقية لقصة يجب على النبتة أن تخوضها. فإما أن تكتمل القصة فتصبح شجرة عظيمة هائلة، وإما أن تكون جذورها ضعيفة، لا حول لها ولا قوة، فتذبل سريعًا وتختفي.

ونبتة الدين كانت بحاجة إلى تثبيت جذورها كي تنمو شجرة قوية، ذات بنية تصمد أمام الأعاصير، وتظلّ الجميع بفيئها، وتمنح الراحة لمن يلتمس الظل تحتها. كل هذه العظمة سببها الجذور التي روتها.

وجذور الدين هي القيم الأخلاقية التي يطرحها "المذهب الإنساني الأبدي"، وهي نابعة من حاجة فطرية داخل النفس البشرية؛ قيم يعرفها الإنسان بمجرد سماعها، حتى لو لم يفهمها تمامًا، لأنه يشعر بها في داخله.

سيخرج الحكيم ويصرخ:
"ليس علينا أن نسرق، أو نضطهد الفقراء واليتامى والمساكين. ليس علينا أن نقتل بعضنا بسبب الاختلافات. يجب أن ننبذ المذهب الحيواني الذي يتبعه قادة الفساد."

عندها، سيصمت الناس، لأنهم يعرفون تلك القيم في أعماقهم. لكن، هل صراخ الحكيم كافٍ؟
الكلام وحده لا يكفي.

نعم، للكلام أثر كبير، لكن هل كان الكلام وحده كافيًا يومًا؟
عندما يقول رئيس الوزراء: "لن أرتاح حتى أساعد الفقراء"، فهل سيحقق ذلك؟
لا، وألف لا.

دعنا نترك قادة النفاق، ونتحدث عنك أنت.
نعم، أنت.
هل قولك لأمرٍ ما يعني بالضرورة أنك فاعله؟
إن لم يكن هناك سعيٌ حقيقي لتنفيذه، فلن يكون للكلام أي قيمة.

الحكيم الذي صرخ بتلك القيم الجميلة، هل سيقنع المرابي بأن يغلق دكانه؟
هل سيجعل التاجر الذي يغش الناس رمزًا للأخلاق والتقوى؟
الناس الذين يمارسون الخطأ هم في الأساس ضحايا، ولن يزول هذا الاضطهاد إلا بزوال القيم التي شكّلت بيئة الفساد تلك.

لا يمكنك أن تعرف نوايا الناس.
من يتحدث في الفضيلة قد تراه غارقًا في الرذيلة، يتكلم عن الأخلاق في العراء، ويخرقها في الخفاء.
الحقيقة لا تُؤخذ بالقول فقط.
من يؤمن بالحقيقة بناءً على الكلام فقط، فهو موهوم في فهمه لها.

الحكماء الذين جاؤوا بالقيم الأخلاقية لم يكتفوا بالكلام لإقناع الناس، بل استخدموا الفعل أيضًا.
فإن أقنع الحكيم شخصًا بالكلام، سيحتاج إلى كلمات كثيرة، وقد لا تحدث تأثيرًا.
أما فعل واحد صادق، فقد يجذب عشرة أشخاص دفعة واحدة.

انظروا إلى موسى، والمسيح، و بوذا.
كلهم اتسموا بالصدق، والأمانة، والخلق الرفيع قبل أن يدعوا الناس إلى القيم.
لو لم يمتلكوا هذه الصفات، لما استجاب لهم أحد.

عندما نطق هؤلاء الثلاثة، صدّقهم مليارات الناس.
بينما بقي كثير من الحكماء الذين نادوا بقيم مشابهة، دون أن يستمع إليهم سوى قلة من الباحثين.

الناس تتأثر بما ترى، قبل أن تتأثر بما تسمع.
ولا يمكن للناس التحكم بما يرون، لكنهم لا يسمعون إلا ما يريدون سماعه.

حتى تُثبت الجذور، يجب أن يعمل الحكماء أكثر مما يتكلمون.
وعمل الحكيم يجب أن يكون متبوعًا بالحكمة الإرشادية.
لو قدم لك نصيحة بالكلام فقط، فوقعها في داخلك سيكون محدودًا، لأنه يتوقف على أفكارك المسبقة.

تخيل مقاتلًا تأثر بالأساطير، وتُسدى إليه نصيحة بعدم قتال مئة رجل وحده.
لن يستجيب.
لكن لو أُريته، بالكلام والفعل، ما الذي سيحصل له، فسوف يأخذ بالنصيحة بعقل.

مصدر تأثر الأفراد مثل صندوق مغلق. لا يمكنك تحديد مكانه دون معرفة محتواه.
الذين يتأثرون بالكلام دون الفعل، هم ببساطة من توافق الكلام مع قيمهم المسبقة.
ما أطرحه هنا لا يؤثر إلا بمن امتلكوا بذور هذه القيم، إما عبر بحثٍ، أو قرارات سابقة تشكّلت عبر تأثير قيمي متسلسل.

القرارات وتشكّل المصير(2-3)

القرارات التي اتخذتها بعد عمر الرابعة عشرة هي ما جعل مني الشخص الذي يكتب هذا الآن.
لو كانت قراراتي مختلفة، لاختلفت حياتي.

لكن علينا أن نتعمق في مسألة المصير أكثر.
لماذا اتخذت هذه القرارات بالتحديد؟
ولو عدت إلى تلك اللحظة، هل كنتُ سأتخذ القرارات ذاتها؟
ما الذي حكم تلك القرارات؟

لن أجيب بالإجابات الكلاسيكية.
سأجيب من زاوية أكثر فهمًا وواقعية، بعيدًا عن السفسطة.

الإنسان يتخذ قراراته بناءً على عوامل خاصة، تختلف من بيئة إلى أخرى.
فالشخص الذي وُلد في العراق، لن تتاح له نفس القيم المتاحة لشخص وُلد في فرنسا.

وحتى في فرنسا، موقع الولادة داخل المجتمع سيؤثر:
الطبقة الغنية؟ المتوسطة؟ الفقيرة؟
هذه الظروف الخارجة عن إرادة الإنسان هي التي تصنع اختلاف النفس البشرية من فرد لآخر.

كل قرار فردي يتخذه الإنسان محكوم بالقيم المتاحة له، وهذه القيم تتحدد بمكان النشأة والظروف المحيطة.
وبالتالي، فكل البشر مجبرون على الاختيار ضمن نطاق قيم محددة.
اختيار الفرد للقيم السليمة وغرسها في داخله هو ما يشكل شخصيته المستقبلية.

من يدري؟
ربما لو وُلد أسامة بن لادن في الولايات المتحدة، لكان مغني بوب، أو سياسيًا فاسدًا، أو حتى مجرمًا.
ولم يكن ليصبح في تنظيم القاعدة، إلا لأن المسار الذي خُلق فيه لم يكن قابلًا للتغيير.

بل ربما، لو مرّ إيلون ماسك في ذات المسار الذي مرّ به أسامة، لكان أصبح جهاديًا فوق الأبراج.

القيم تحتاج إلى نظام(2-4)

تثبيت القيم الأخلاقية لا يتم بالكلام فقط.
نحتاج إلى نظام عملي يجعل من تلك القيم واقعًا ملموسًا.
ومن يقوم بتلك الخطوات سيُثبت بعض القيم في أذهان الناس.

وإذا كانت القيم مستوحاة من الفطرة الإنسانية، فإن أفواجًا من الناس سيؤمنون بها ويطبقونها.
لكن إذا طُرحت القيم دون نظام عملي، فإنها ستذبل كما تذبل النبتة بلا جذور.

حتى لو تأثر بها شخص بعد موت المفكر، فإن من يُكلّف بتطبيقها قد لا يفهمها كما أراد صاحبها، فتفشل.

القيم التي طرحها كانط لا يتأثر بها إلا قلّة من المطلعين.
أما بوذا وكونفوشيوس، فأفكارهم تُطبق من ملايين البشر، لأن منهجهم كان عمليًا، لا نظريًا.

مقاومة الحركة المضادة(2-5)

في كل مجتمعات البشرية الموجودة، هنالك حركة اتجاهها في اليمين، ولها قيمها الخاصة التي تجعلها تتوجه بذلك الاتجاه كما أشرنا في السابق.

ولكن...

وجود هذه القيم في مقدماتها فطري إنساني،
لكن وجود تلك القيم في جزئياتها هو اجتهاد إنساني قائم على الصواب والخطأ.

وهذا يعني أن القيم في مقدماتها لم تتخذ الاتجاه الخاص،
ولكن في جزئياتها الاجتهادية جعلت من تلك القيم بشكل كامل في اتجاه معين.

وحينها...
سيحصل انحراف وتبدل في تلك القيم بحكم انتفاء مقدماتها بالجزئيات الخاطئة.

أي بمعنى أدق:
إذا لم تجد القيم في مقدماتها ـ التي هي القيم الفطرية ـ حقيقة وجود بسبب عمل القيم الجزئية،
فإنها ستنفني عن الوجود الواقعي وتعود لكونها وجودًا افتراضيًا في أعماق الإنسان.

وهذه القيم التي توجهت في اتجاه آخر ستكون متعارضة مع القيم الفطرية في أعماق الإنسان،
ستؤدي تلك القيم إلى الخروج ومعارضة تلك القيم الجزئية المحرفة عن جوهر القيم في المقدمات،
وتشكل معارضة شديدة لها باعتبار تلك القيم خالفت الفطرة.

وهنا...

ستؤدي إلى ظهور رسالة إصلاحية يقودها حكيم من أجل إعادة اتجاه تلك الحركة،
أي: **ظهور مقاومة للحركة المضادة.**

وهذا ما حصل مع الأديان السماوية بشكل خاص،
حيث كان ظهور الدين هو فقط **مقاومة إصلاحية لانحراف ذلك الدين عن القيم في مقدماتها.**

فعندما أصبحت اليهودية في انحراف قوي، وابتعدت كل البعد عن القيم الفطرية التي أتت بها اليهودية،
حينها ظهرت النصرانية كحركة مضادة لإعادة القيم الحقيقية الفطرية في داخل الإنسان.

وكذلك بالنسبة لظهور الإسلام،
الذي كان حركة مضادة للانحراف في القيم التي أتت بها النصرانية.

وكذلك بالنسبة للإسلام الذي انحرف عن المسار الذي جاء به...
لذلك، **نحن سنستعد لحركة مقاومة أخرى في القريب.**

إذا كان ظهور الأديان هو نتيجة للانحراف في الأديان السابقة،
فلماذا تلك الأديان المنحرفة ما زالت موجودة رغم ظهور حركة مضادة لإعادتها إلى الفطرة السابقة؟

الجواب بكل بساطة:

الانحراف له أتباعه الذين يؤمنون به،
ولن يرضخوا للعقل والقلب في العودة إلى القيم التي افتقدوها،
لأنهم لم يمتلكوا إرادة خاصة بهم،
ولم يعرفوا مكانًا آخر غير الانحراف الذي هم فيه.
لا يعرفون ماذا يفعلون من دونه.

تخيل...

إذا كان لك دار، وتلك الدار لا تملك غيرها،
وطُلِبَ منك المغادرة، ولكنك لا تملك دارًا غير دارك،
وأنت خائف من الفشل في البحث عن دار جديدة...
هل ستغادر دارك؟

الحقيقة لا يمكن الحصول عليها جالسًا.
الحقيقة في الأديان **مخفية** وليست سهلة العثور.

وجود الجوهر الحقيقي لتلك القيم **غير كافٍ** لمعرفة الحقيقة في جوهرها.

غياب البرهان الذي يثبت اتصال المحمول مع الموضوع
لا يعني أن البرهان لا يمكن الوصول إليه.

لأن العلة التي تربط الموضوع بالمحمول
تحتاج النظر إليها من داخل أعماق الذات البشرية.

والبرهان على الحقيقة يمكن الوصول له عن طريق **علة صحيحة**.

ولا يمكن الوقوف هنا فحسب...

وكما أشرنا سابقًا لضرورة المقاومة الفكرية والعملية للظلم الحاصل،
تعلو أصوات الصياح بين أرواح البشر،
صوت يدعوهم إلى الحياة،
يدعوهم إلى أمر غاية في الكمال،
صوت يدعوهم للإنسانية بإخلاص.

ولا يهم من أين يصدر هذا الصوت،
بل علينا أن نستمع لذلك الصوت.

رغم أن ذلك لم يحصل...

لأن العبيد إذا دعاهم الحر إلى الحرية،
وضعوا أصابعهم في آذانهم خشية أن تنكسر السلاسل التي تحيط بالقلوب.

البحث في الأديان... هو الخوف

لم أتعرض إلى شخص ناقشني في الأديان حتى نعرف الحقيقة.

غالب من يناقش الأديان له سبب واحد فقط:
الدفاع عن دينه.

كأنه سقط من السماء على بحر الحقيقة،
لكنه في الحقيقة سقط في **صحراء الجهل ووهم الحقيقة**.

فكيف السبيل لجلب مسكين الوهم إلى واقع الحقيقة،
وهو غارق في وهمه الذي حكم بجماله بصورة مؤلمة مخيفة؟

لن يعرف النائمون أنهم في حلم،
إلا بعد أن يفيقوا من نومهم.

ولكن...

كيف ستقنع النائم في هذه الدنيا أن هذا مجرد وهم سيفيق منه؟

سيف الموت هو السيف الوحيد القادر على **قطع الوهم ورؤية الحقيقة**.

لكن ما الفائدة؟

فإن سيف الموت قد قطع عنقك...
وأصبحت ميتًا.

فقط بوجود الفرد ضمن دين معين أو طائفة معينة
سيكون حينها نائمًا **نوم طفل لم يعرف عن الحياة سوى نومها.**

يتقاتل البشر فيما بينهم:
أي دين آباء هو الأفضل؟
والجميع يدافع باستماتة عنه، كأنه لن ينجو **إلا بنجاة دينه.**

أتذكر في أحد المرات تقابلت مع شخص مسلم شيعي،
هدفه الوحيد في الحياة هو **نبش الأخطاء في الجانب الآخر ومحاربتها.**

وعندما أخذت أناقشه عن بعض المواضيع المتعلقة في مذهبه الفكري،
وجدته لا يعتقد اعتقادًا خاصًا،
بل يعتقد ما يعتقده علماؤه وفهمهم للنص الديني المبهم.

حينها تبادر إلى ذهني هذا السؤال:

لماذا يضيع طاقة كبيرة في البحث عن أمور هو ليس بحاجة ملحة لها؟
ربما هنالك أمور أخرى في دينه **أهم وأكبر حكمة** تركها فقط ليجيب ويجادل بعض الأشخاص من الفريق الآخر.

هذا الابتعاد عن القيم الحقيقية من الدين،
والانجراف بأفكار المجتهدين،
هي من تجعل الشخص لا يُبصر الحقيقة،
بسبب النوم المستمر في الاتجاه الذي هو فيه.

وبسبب ظهور هذه المعارضة للاتجاه المذكور،
هذه المعارضة سيحصل فيها اجتهادات أخرى **معاكسة** في القيم الجزئية.

أي سيصبح لدينا اتجاه آخر... وهو **الشمال.**

السهمان المنطلقان في اتجاهين متعاكسين لن يلتقيا،
ولكنهما يرتبطان بنقطة الأصل دائمًا.

كل شخص عليه العودة لتلك النقطة التي انطلق منها الاتجاهان لمعرفة الحقيقة.

صراع العادات

العادات والتقاليد لأي أمة في أي حضارة بشرية ترتبط بالأمور:

البيئة: لبيئة المنطقة أثر كبير بتحديد العادات والتقاليد المراد اتباعها في أي مجتمع، لو نظرنا الآن إلى أي أمة من الأمم الحاضرة، سنرى أن عادات وتقاليد هذه الأمة لا تخرج عن إطار بيئة تلك الأمة.

على سبيل المثال، أن العادات في المناطق شديدة البرودة تختلف اختلافًا جذريًا عن عادات وتقاليد المناطق الجرداء شديدة الحرارة.

لا تذهب بعيدًا، الآن لو ذهبنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إلى ولاية تكساس، فإن بيئة هذه الولاية المختلفة عن ولاية ألاسكا بالبيئة، أصبحت تختلف بالعادات أيضًا، وهذا ظاهر لجميع سكان الولايات.

إن أثر البيئة على المجتمعات كبير لا يمكن التغاضي عنه، والإغفال عن هكذا تفاصيل من قبل الحكماء خطأ جسيم لا يمكن غفرانه، لأنك بمعرفة علة لهذا الموضوع يثبت برهان ذلك الموضوع.

إن للبيئة أثرًا كبيرًا في شحذ ماهية الإنسان، ورسم كل انحناءات هذا الزمان، والذي مضى، والذي آتي.

وتلك الرسوم تكون مرهونة لجودة اللون، ومهارة الرسام.

والرسام الجيد، إذا لم تتوفر لديه الألوان ذات الجودة المناسبة، فإنه سيصنعها.

ارسموا هذه الحياة بالألوان الزاهية، جودتها راقية، وأصولها باقية، من كل حقد وكره خالية.

إن رسام البيئة غالبًا ما يكونون مؤثريها في المجتمعات.

لو كان الحكيم غير مؤثر بالمجتمع، اعلم أنه ليس رسام تلك البيئة، ومن المعيب أن لا يكون الحكيم هو المؤثر فيها.

الخرافات: للخرافات بالأمم دهر من الحياة، جميع الأمم لا تبني عاداتها بعيدًا عن الخرافات.

أما موضوع جوهر الخرافة: هل هو لمصلحة العامة أم لتضليل الحقيقة؟
هذا سيناقش فيما بعد.

الخرافات تتعلق بإيمان الأفراد ببعض الأمور، ويزداد الإيمان بتلك الخرافات عندما تحصل بعض الأمور التي لا يمتلكون تفسيرًا منطقيًا لها، فتنسب إلى تلك الخرافة وتُضخَّم لدى أفهام وعقول الناس.

مثال ذلك – أقصد عدم الفهم – عندما يحترق بستان شخص ما، ولا يستطيعون تفسير سبب ذلك الاحتراق، سيذهب فريق للقول إنه اختبار من الإله، إذا كان ذلك الشخص مؤمنًا.

أما إذا كان الشخص غير مؤمن، سيقولون إن ذلك عقاب.

نفس الأمر يحصل كل يوم، ويُفسر كل يوم بهذا الأمر، لكونه مجهول الأسباب.

بينما لو علم الأشخاص أن شخصًا ما قام بحرق ذلك البستان، لم يذهبوا لهذا الاتجاه.

لذلك فإن الفكرة التي أحاول إيصالها هي أن الناس سيفسرون ما لا يجدون تفسيرًا حقيقيًا له، من خلال الخرافات الإيمانية التي تمزج مع الحقائق.

كان لشعب المايا عادة معينة مبنية بشكل كامل على الخرافة.

كانوا يعتقدون أن كسوف الشمس هو غضب الآلهة، وأنهم إذا ما لم يقدموا الأضاحي لها، فإن هذه الآلهة ستنهي الحياة وتنزل بهم عقابًا شديدًا.

لذلك هم كانوا يجمعون مجموعة من المساكين ويطلونهم باللون الأزرق، ثم يأخذوهم إلى أعلى الهرم، وأثناء فترة الكسوف يقطعون رؤوس الأشخاص الذين طلوهم باللون الأزرق.

ويُرمى الرأس من أعلى قمة الهرم لينزل متدحرجًا من درجة إلى أخرى، ومن ثم يُرمى الجسد من الجانب الآخر للهرم الذي لا يحتوي على الدرج.

وتستمر عملية الأضاحي هذه على طول فترة الكسوف.

هذه العادات المرعبة التي آمن بها البشر لا يمكن أن تكون إلا بسبب جهل البشر بمعرفة الحقيقة، فيُنسب التفسير إلى الخرافة، فتزداد قوة تلك الخرافة لدى الناس.

كان يُعتقد أنه إذا ضرب الرعد في السماء، فهذا يعني أن إله الرعد "زيوس" غاضب.

وإذا هاج البحر، فإن "بوسيدون" مغتاظ.

كل هذه الخرافات شكّلت الكثير من العادات لدى من يؤمن بها، وقد أحكمت السيطرة عليهم.

أما في الديانة الإبراهيمية، نرى أن للعادات والتقاليد الدينية أثرًا واضحًا كبيرًا على تصرفات وسلوكيات الناس.

فمنذ أن كان الإنسان في بطن أمه، ولغاية موته، هناك إجراءات وعادات يجب اتباعها بناءً على معتقداتهم الدينية.

فعندما يولد الطفل، تُتلى بعض العبارات الدينية، وتُقام طقوس معينة.

وإذا مات هذا الشخص، كذلك تُتلى عليه بعض العبارات، وتُتبع عادات وطقوس أخرى.

أما أثناء حياته، هناك مجموعة كبيرة من التقاليد والعادات التي يجب عليه اتباعها، كنوع اللباس، والتكلم بكلمات معينة، وأداء صلوات يومية، وصيام، وتقديم زكاة، وإقامة طقوس معينة في أيام معينة.

فمثلًا، اليهود يقومون بالصلاة من يوم الجمعة عند غروب الشمس، ويستمر ذلك إلى غروب شمس يوم السبت، ويُسمى هذا الطقس "شبات".

والمسلمون لهم طقوسهم الخاصة يوم الجمعة، إذ تُؤدى صلاة الجمعة جماعة، ويتم الاستماع إلى خطبة دينية من قِبل الإمام.

والمسيحيون، كذلك، يقومون بزيارة الكنائس يوم الأحد، ويصلّون، ويتعبدون في هذا اليوم.

هذه الطقوس المنتشرة تُعدّ جزءًا لا يتجزأ من عادات البشر وتقاليدهم، مهما كان الاختلاف بينهم، فالأديان هي منبع واضح وواضع لكثير من هذه العادات.

ليس فقط الديانات الإبراهيمية، بل الديانات الأخرى كذلك، لها نفس الأثر.

فعندك الديانة البوذية، والكنفوشيوسية، والهندوسية، والزرادشتية، والسيخية، كلها لها عاداتها الخاصة التي تُفرض على الأتباع بشكل صارم، وإلا عُدّ الخارج عن هذه الطقوس غير تابع للدين، أو مرتكبًا لإثم كبير.

ومع الوقت، تصبح هذه العادات إرثًا لا يمكن تجاوزه بسهولة، وقد تتطور إلى قوانين اجتماعية أكثر من كونها دينية فقط.

فقد يُجبر الفرد على الالتزام بها، ليس خوفًا من العقاب الإلهي، بل خوفًا من المجتمع ذاته، ومن حكم الآخرين عليه.

ثمّة نقطة جوهرية لا يمكن غض الطرف عنها، وهي أنّ الأديان — رغم اختلافها — لم تنشأ من فراغ.

إنها لم تأتِ لتَقتلع الإنسان من أرضه، ولا لتقتلع عاداته من جذورها دفعة واحدة، بل جاءت لتتكامل معه، لترشده، لتكون مرآة لداخله، لا سوطًا على جسده.

حين ننظر إلى تاريخ الأديان نجد أنها غالبًا ما تبنّت بعضًا من عادات المجتمعات التي نزلت فيها.

لا لأنها عاجزة عن تقديم بديل، بل لأنها تدرك أن الإنسان لا يُنتزع من تقاليده بسهولة.

ولأنّ الدين ينبع من فطرة الإنسان، فهو يعرف تمامًا ما الذي يجب أن يُهذّب، وما الذي يجب أن يُحافَظ عليه.

لو أمعنّا النظر قليلًا، لرأينا أن الدين لا يُعارض العادات كلها، ولا يدعو لنسفها كليًا.

إنما يُعارض تلك العادات التي تتعارض مع القيم الفطرية، مع الكرامة، مع العدالة، مع الرحمة.

والدليل أن هناك مجتمعات كثيرة تشترك في نفس الدين، ولكنها تختلف اختلافًا كبيرًا في تقاليدها.

فمثلًا، المسلمون في سوريا لا يشبهون تمامًا المسلمين في السعودية.

الدين واحد، لكن البيئة مختلفة، والخرافات مختلفة، والأساطير التي تغلغلت في النفوس مختلفة.

فالمجتمع السوري تأثر بحضارات عريقة قامت على ضفاف الأنهار، كحضارات دجلة والفرات.

أما المجتمع السعودي، فكان محاطًا بالصحراء، وهي بيئة تفرض نوعًا آخر من الأساطير، ومن التصورات.

حتى وإن تشابهت بعض القيم، فإن عمق الخرافة، ودرجة التجذر، يختلفان.

إنه لمن السذاجة أن نُرجع كل العادات والتقاليد للدين.

الدين لا يولّد العادات، بل يتهذّب بها أو يُهذّبها.

لو تأملت قليلاً في المجتمعات الإسلامية المختلفة في آسيا وأفريقيا، للاحظت أن كل مجتمع له عاداته، رغم وحدة العقيدة.

وهذا يدفعنا للتساؤل: هل الدين هو من يُشكّل العادات؟ أم أن العادات تُؤثّر في فهم الناس للدين؟

الحقيقة أن الدين يحمل قيماً فطرية، وأنه وُجد من أجل الإنسان، لا العكس.

لكن حين يتحوّل إلى أداة بيد الجاهلين، يتم خلطه بالخرافة، ويُفرض على الناس كأنه عبء لا كأنه هداية.

ولعلّ أخطر ما تواجهه المجتمعات، هو حين تتقدّس العادة، وتُدرج في مقام الدين.

في تلك اللحظة، تصبح المناقشة محرّمة، والتساؤل جريمة، والرفض كفرًا.

ليس لأنّ الدين يأمر بذلك، بل لأنّ العادة، حين تتقمّص هيئة الدين، تكتسب مناعته، وسلطته، وهيبته.

وهنا، يتشوّه الوعي، وتضيع الحدود بين ما هو إلهي وما هو إنساني، بين ما هو مقدّس وما هو موروث.

لقد نجحت بعض المجتمعات في ترسيخ خرافاتها تحت مظلّة الدين، حتى بات من الصعب فصل الدين عن العادة في وعي أفرادها.

والمؤلم، أن كل من يحاول كشف هذا الخلط، يُرمى بالزندقة أو بالخروج عن المِلّة.

ولذلك، فإن أولى خطوات التحرر الفكري، لا تبدأ بمهاجمة الدين، ولا بنفي العادات، بل بتمييز الحدود بينهما.

فالدين، حين يُفهم كما هو، يصبح نورًا يضيء مسارات الحياة، ويكشف زيف العادات التي تتخفّى خلف قداسته.

أما حين يُختزل الدين في مجموعة من الطقوس والعادات، فإنه يفقد جوهره، ويتحوّل إلى عبء، ويصبح أداة للسيطرة لا وسيلة للتحرر.

إنّ الصراع الحقيقي، ليس بين الدين والعقل، ولا بين العرف والفطرة، بل بين الإنسان الحرّ والإنسان المقيّد بخرافات لم يعد يراها.

ولهذا، فإن ما نحتاجه اليوم، ليس ثورةً ضد الدين، بل صحوةً داخل الدين، تُعيد إليه نوره الفطري، وتطهّره من العادات التي التصقت به زورًا.

فالدين لا يخاف من العقل، ولا يعادي السؤال، بل يدعونا للتفكر، والتأمل، وإعمال البصيرة.

وفي النهاية، فإن الدين الخالص، لا يحتاج إلى أن يُفرض بالقوة، بل يُدرَك بالصدق، ويُعاش بحرية.

الهدم الفكري(2-6)

عند أي ولوج فكري من أي نوع كان، فلابد له أن يؤسس منظومة فكرية كاملة لهدم المنظومة الفكرية المعارضة، ولا يشترط بهذا الهدم أن يكون عمليًا في كل الأوقات.

هنالك بعض الطوائف الفكرية في بعض الأديان التي تحاول أن تؤسس نظام هدم للفكر الخاطئ حسب المنظور لتلك الطائفة: الكاثوليك، البروتستانت في المسيحية، السنة، الشيعة في الإسلام، والكثير من هذه الطوائف داخل الدين التي انقسمت فيما بينها. لن أناقش أسباب الانقسام والاختلاف في هذا الفصل، لكن من أجل تقريب فكرة الهدم الفكري إلى ذهن القارئ.

عندما أتى الدين بنوره إلى ظلام قبور مملكة البشر، كان لابد لهذا النور الذي يمتلك طاقة عاتية لحرق كل الشرور المتسللة إلى هذا العالم بالظلام؛ أن يحرق، وينفي، ويفني كل طاقته من أجل الخلاص من ذلك الظلام المخيف الذي خيم على البشر بعد أن غاب الخير باندثار القيم الإنسانية الحقيقية.

الطريقة الوحيدة لإزالة هذا الخطأ هي من خلال هدم جدرانه ومساواتها إلى الأرض. الهدم الفكري كان لابد منه، حتى يتم التأسيس على القيم الإنسانية الخيرة للجيل القادم.

في العمق البشري ليس هنالك وجود للنقيضين في مكان أو حالة واحدة.

في الغرفة: إما يوجد ضوء أو غياب وجود الضوء، أي بمعنى "الظلام".
الظلام هو مجرد حالة غياب وجود الضوء، ليس أكثر من ذلك.
ولا يمكن القول إن الظلام له وجود حقيقي بذاته، بل حقيقة وجوده رمز لغياب الضوء، ولكن لا يمكن اعتبار الظلام موجودًا بذاته.

عندما نقول: "أنت موجود" و"الضوء موجود"، فإن غياب أحدكما لا يعني عدم وجود الآخر، وحضوركما في الوقت نفسه دليل على وجودكما.
لكن لو انقطع الضوء وأصبح غير موجود، فإن هذا لا يعني غياب وجودك أنت، إنما أنتما موجودان بذاتكما.

أما الظلام فلا يُعتبر وجودًا بذاته، إنما هو حالة غياب الضوء.
وغياب الشيء عن الوجود لا يعني أن هنالك وجودًا آخر معاكسًا يكون موجودًا بعدم وجوده.

الضوء فقط هو الموجود بسبب الدليل القاطع على وجوده في المادة والنظر إليها، أما الظلام فهو مجرد حالة غياب الضوء، وهو ليس بشيء موجود.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الخير والشر، وباستخدام نفس البرهان المتبع، يمكننا أن نعتبر الشر هو مجرد حالة غياب الخير.

لأن الشر، متى ما وُجد، غاب الخير عنه، وليس هنالك وجود للاثنين معًا مطلقًا.

الهدم الفكري الصحيح هو إحلال الخير بإيجاد الخير نفسه.

لا يمكن إلغاء حالة الظلمة إلا بإشعال النور،
ولا يمكنك محاربة الشر إلا بإيجاد الخير في ذلك الشر.

ما تبنيه الطوائف من منظومة فكرية للفرق المخالفة غير صحيح، لأنه لا يتبع هذا المبدأ البسيط.

من يقول إن الحدود بين الخير والشر تكاد أن تكون لا تُرى، هذا على خطأ واضح.
الحدود بين الخير والشر واضحة وضوح الضوء من الظلام، ووضوح الليل من النهار.

المنهج الذي تم اتباعه من قبل الطوائف هو منهج بعيد عن هذا المنهج البسيط، وما تم اتباعه أدى إلى الكثير من الكوارث الإنسانية المؤلمة.

من يقتل إنسانًا بغير ذنب أو مبرر، هذا غاب عنه الخير، غيابًا جعله لا يرى الأشياء على حقيقتها بسبب غياب الخير عنه.

تخيل معي شخصًا يبحث عن إبرة خياطة في غرفة مظلمة،
هل تظن أنه سيجد تلك الإبرة؟ قطعًا لا.
لكن تخيل معي سيناريو آخر: ماذا لو كانت الغرفة المظلمة تلك تحتوي على أرضها زجاجًا حادًا مكسرًا في جميع الأرجاء؟
هل سيجد غير الجروح في تلك الغرفة؟

ولكن، ماذا لو امتلك مصباحًا يضيء له الغرفة بشكل كامل؟
حتما سيجد ضالته.

كل إنسان اقترف فعلًا شريرًا، هذا لا يعني أن هذا الإنسان هو شرير بذاته، إنما هو مردود إلى أمرين:

إما غاب الخير في فعلٍ ما،

أو غاب الخير عنه بشكل كامل، فأصبحت كل أفعاله شر.

أي فعل من قبل شخص على أنه فعل ديني، هو مجرد فعل فردي، مفتعل من قبل الفرد،
إما أن يكون مصحوبًا بالخير أو لا يكون مصحوبًا بخير (شرًا).

الدين كان يبني منظومة هدم فكري للمنظومة التي تعارض وجود الخير،
هذا هو منطلق وجود الدين في المرحلة الأولى.

وحتى يتم الهدم الفكري غير الصحيح، نحتاج إلى بناء منظومة هدم بنفس القيم المنادى لها، لا باستخدام القيم المتعارضة.

أي عندما نقول: "إن الإنسان لا يجب عليه أن يقتل أي شخص إلا للضرورة الملحة جدًا"،
ولكن عندما يُقتل شخص ما من قبل المدافعين عن الدين، فإن هذا ليس هو نفسه الهدم الموافق للقيم المصرح بها من قبل الدين، التي نصّت على عدم استخدام القتل كحل.

الهدم الفكري المتبع من الدين يكون نابعًا من القيم التي تمثل جوهر ذلك الدين،
الذي يصرخ برسالة في قمة الإنسانية والرحمة،
ولا يصرخ بالقتل والنقمة.

إذا كان الشر والخير لا يجتمعان في مكان واحد، إذًا لماذا اجتمعا عند الإنسان؟

لا يمكنني، بكل الأحوال، أن أعتبر الإنسان كائنًا أحادي النفس مطلقًا.
أي أن مكنون الإنسان ليس بسيطًا، بل هو مركب.

لذلك، ستجد أنه من الصعوبة والندرة أن يجمع إنسان واحد كل القيم الإنسانية،
وهذا الإنسان الكامل الذي أدعو إليه ليس مستحيل الوصول إليه،
بل يحتاج إلى تأمل عميق جدًا.

إذا كان الإنسان يمتلك خصلة حسنة وأخرى سيئة، هذا لا يعني أن هاتين الخصلتين خصلة واحدة.
ولكن كلما زادت الخصال الحسنة، قلّت الخصال السيئة، والعكس صحيح.

لأن العلاقة بين الخير والشر علاقة عكسية:
كلما زاد الخير في الإنسان، قلّ الشر، والعكس صحيح.

وعلة هذه العلاقة هي رغبة الإنسان بزيادة خصال معينة، مدفوعًا من خلال تلك الخصال.
أي إذا كان الفرد يحتوي على عشر خصال خيرية، بالمقابل هو لا يمتلك عشر خصال شريرة.

لأن الخصلة الخيّرة الأولى تمكّنت من جعل الفرد يسعى لخصال خيّرة أكثر.
وإذا دعته لامتلاك خصلة الصدق، لن تكون لديه خصلة الكذب.
وإذا امتلك خصلة الأمانة، لا يمكن أن يمتلك خصلة الخيانة.

وقد ثبت إليَّ أن هناك مجموعة بسيطة من الناس الذين امتلكوا الخصال الخيّرة كلها،
أي أنهم لم يمتلكوا خصلة شريرة واحدة.

ولكن لم يثبت لدي أن هناك بشرًا امتلكوا كل خصال الشر ولم يمتلكوا أي خصلة من الخير،
لكن من الممكن وجودهم.

الهدم الفكري الديني كان أفضل وأنجح نظام هدم فكري بشري،
لأن الدين استعمل الهدم في المرحلة الأولى من انطلاقه،
التي كان فيها الدين نقيًا، ونجح بتحسين القيم المتبعة من خلال جعل الناس يأتون بأنفسهم له،
بسبب ما عرضه عليهم من قيم جميلة أسرت قلوبهم، واستمالت عقولهم، وطهّرت أرواحهم، وضبطت أنفسهم.

وهذه هي الحقيقة التي لن يتجرأ أي مفكر في العصر الحالي على القول بها:
إما أنه يتبع دينًا معينًا يقضي كل عمره يتكلم ويدافع عن ذلك الدين،
أو هو ملحد يكره أن يصل لمثل هذه الحقيقة التي لا تُسره.

الصورة النهائية(2-7)

السفينة التي أبحرت في بحر من الأمواج المضطربة، تماسكت وتجاوزت كل موجة وكل عاصفة. وصلت هذه السفينة إلى الساحل، لتعيد الماء إلى وجوه من ركبوها، ليشعروا بالأمان الذي وُعِدوا به إن هم ركبوا هذه السفينة.

في هذه المرحلة التي أقصدها، يُعلن الدين عن نفسه ككيان موجود في الوجود، ويطالب بأن تُتاح له الفرصة لنثر بذور الزرع في الأرض التي حرثها الموسم كله. وصول الدين إلى صورته النهائية مرهون بتلك الحالة التي أصبح عليها الناس، نتيجة الأمور الكثيرة التي مرّوا بها أثناء إيمانهم بالقيم التي صرّح بها الدين؛ تلك القيم التي ستمثل **سفينة نجاتهم** في هذا البحر الهائج الذي هو الحياة.

يجب أن أوضح نقطة مهمة حتى لا يلتبس الأمر على القارئ:

الصورة النهائية التي وصل لها الدين هي صورة مؤقتة غير ثابتة.
فسبب وصول الدين لتلك الصورة هو **المجموعة من الناس** التي آمنت بكل عمق، وبكامل مشاعرها. والحكيم الذي دعا إلى تلك القيم لم يكن ليتمكن من جمعهم لولا أنهم مرّوا بنفس الظروف التي مرّ بها. ولهذا، فإن أبسط شخص مؤمن من تلك المجموعة قد يمتلك فهمًا أعمق لقيم ذلك الدين من أكبر فيلسوف أو حكيم معاصر يتحدث باسمه.

إن الأسباب التي كوّنت الصورة النهائية لأي دين لا يمكن تكرارها مطلقًا في نفس ذلك الدين. ولا أعتقد أن هناك **عودة لتلك الصورة**، تمامًا كما لا يمكن العودة إلى الماضي. إنها مستحيلة.

لكن المشكلة الكبرى التي تقع فيها جميع الأديان تبدأ **بعد** الصورة النهائية. وسأتناول ذلك بالتفصيل في الفصل القادم.

إحدى تجليات الصورة النهائية هي **المحبة** التي تنبثق بين تلك المجموعة من الناس. ولا أقصد بـ"المجموعة" المنتمين للدين من حيث الشكل، بل **المؤمنين الحقيقيين** من حيث الجوهر.

هؤلاء سيمتلكون **رحمة ومحبة عجيبة للحياة،** قبل أن تتحوّل إلى مجرد رغبة بعدم الحياة والتطلع إلى الحياة بعد الموت (الجنة).
لقد كان المسيح، على سبيل المثال، لا يدعو للانغماس في الحياة المادية، لكنه كان يدعو إلى **عيش الحياة**.

وسوء فهم الناس لمعنى "الحياة" جعلهم يتأرجحون بين فهمين خاطئين:

بعضهم ظنّ أن دعوة الدين لعدم عيش "الدنيا" تعني عدم عيش "الحياة"، فانسحب منها تمامًا.

وبعضهم غرق في الدنيا، فظن أنه بذلك يعيش الحياة كما ينبغي، فذابت روحه في التفاصيل المادية.

جميع الأديان كانت تحمل في أعماقها **حبًا خاصًا للحياة**.

كان الدين يدعو إلى عيش الحياة حتى يُحدَّد موقف الإنسان بعد موته: هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟
لكن هذه **الدعوة لعيش الحياة** وُوجِهت بفهمٍ بشري خاطئ:
إما بالرغبة الكاملة والذوبان في الحياة،
وإما برفض تام لها، وكلاهما **انحراف عن القيم الأصلية للدين القويم**.

الصورة النهائية التي رسمها المؤمنون الأوائل للدين، كانت **لوحةً** فيها كل ألوان الحياة،
لكن تلك الألوان لم تُلطّخ اللوحة بعشوائية، بل رُسم بها شيءٌ جميلٌ، منظّم، ومفعمٌ بالمعنى.

عدم فهم الحياة قاد إلى الكثير من **الاجتهادات الخاطئة** من الجميع.

فالشخص الذي لم يفهم المعنى العميق لـ"المتعة" في الحياة،
لم يعرف كيف يتمتع بها **بشكل صحيح**.

ومن لم يفهم متعة الأكل،
لم يعرف كيف يأكل للتمتع حقًا،
بل غرق إما في نهمٍ مادي، أو حرمان روحي، وكلاهما **فقدان للميزان** الذي كانت تدعو إليه الصورة النهائية للدين.

قصة الطوفان التي ذكرتها الأديان السماوية هي أروع وصف للحالة النهائية للدين. نوح، الذي أمضى قرونًا يدعو قومه إلى ركوب سفينته، كان يعلم أن من يتخلف عنها في الساعة التي ينهار فيها كل شيء لن ينجو، وسيبقى مع ما انهار.

نوح دعا قومه قرونًا كثيرة، ولم يستجب لدعائه إلا بعض أهل بيته ونفرات معدودة بالنسبة للتركيبة السكانية. ولكن عندما أتت ساعة الطوفان أمر الله نوحًا أن يدعو الحيوانات للركوب على السفينة. وعندما دعا نوح تلك الحيوانات، أتت مسرعة، سامعة، مطيعة. كانت هذه اللحظة تدل على أن الحيوانات تستمع للقيم التي يدعو لها الله بشكل أفضل من الإنسان.

أحد أبناء نوح، حتى بعد أن طافت الأرض، لم يقبل دعوة أبيه بالركوب، وفضّل الصعود إلى جبل على أن يركب مع أبيه، لأن ابن نوح لم يستطع أن يجد القيم الحقيقية في داخله. أغلق على ذاته بالأقفال حتى لا يصل صوت نوح إلى داخله محركًا تلك القيم المدفونة.

كيف كانت الحياة قبل إبحار السفينة؟ وكيف كانت الحياة بعد أن أبحرت السفينة؟ أنا هنا لا أناقش القصة ذاتها، بل أستخدم التعبير الرمزي لها. قوم رفضوا أن يرجعوا إلى قيمهم القويمة، ورضخوا الحيوانية المقيتة. السفينة كانت حقيقية، لا مفر منها، لأن الناس لم يستطيعوا أن يتجاوبوا مع رسالة نوح، فكان لابد من غرقهم بأنفسهم.

ربما لو آمنوا جميعًا لم يحصل الطوفان العظيم. وكان لابد من نوح أن يبني تلك السفينة من أول يوم، لأنه كان يعلم صعوبة العودة من الضلال. لذلك، كان الوقت الذي يدعو فيه الحيوانات هو ساعة الطوفان، أي بعد دعوته للبشر بقرون، لأنه كان يعلم أن الحيوانات ستستجيب، فما احتاج سوى ساعات لدعوتها للنجاة من الطوفان.

الصورة النهائية للدين بعد الطوفان، كانت هي نفس الصورة المتكررة التي وصلها الدين قبل نوح. نعم، هي ليست مشابهة لها بالتفاصيل، لكنها حملت نفس المعاني. ومن ركبوا السفينة من الصالحين أيضًا لن يتكرروا في أبنائهم، لأنهم سينحرفون أيضًا، حتى يصل الحكيم التالي، والذي لن يطيل قبل أن يقدّم.

الصورة النهائية للدين هي حالة مؤقتة، ستنتهي بنهاية ذلك الجيل الذي فهم، وشعر، وآمن بتلك القيم الإنسانية الجميلة التي بيّن وجودها حكيمهم. ولن تجد صورة أجمل من تلك الصورة، لأنها حقيقية بشكل كامل. أما ما مرت به تلك الصورة النهائية، فكان لابد منه حتى تصل إلى ما وصلت إليه بشكل أكثر عمقًا ودقة.

يعيش الإنسان بخيال تصنعه الأفكار التي يؤمن بها، فيصبح مكبّلًا بالأغلال في عالم من الوهم والخيال. ومن شدة الخضوع الذي هو فيه، يصبح عبدًا لذلك الوهم، كأنه يجلس وسط غرفة لا باب لها ويدّعي أنه محبوس داخلها ولا يستطيع الفرار.

مسكين ذلك الإنسان، عصب الوهم عينيه، فأصبح لا يعرف الواقع من الخيال. هؤلاء الجماعة من معطّلي العقول والقلوب من الصعب أن يتبعوا الطريق الصحيح. أتعلمون لماذا؟ لأنهم عندما ينظرون إلى أمر لا يبصرونه، يحتاجون إلى شخص يقصّ عليهم ما هو أمامهم، وما هم له ينظرون، كأنهم إلى عيونهم يتركون.

أنت تمتلك العينين، فلماذا لا ترى الحقيقة بهما؟

لماذا جعلت ما تنظر إليه حقيقة مضطربة لا حل لها؟

وأنك تحتاج إلى شخص يقول لك ما هي؟

إن العيب يكمن في قلوبهم قبل أن يصبح خللًا في عقولهم.

وها أنا ذا،
منذ أن تفتحت أزهاري،
وأبصرت حالي،
ورميت بكل الأماني في دفاتري وأقلامي...

أدعو إلى **ثورة،**
تقضي على الظلام،
وتشيع **النور** في كل الأركان والأحلام.

ثورة...
العقل يراها مستحيلة،
والقلب يدعو لها بكل تفانٍ،
حتى تتحقق الأماني.

الفصل الثالث

البناء الديني(3-1)

بعد إعلان النصر الكبير للدين، يدخل هذا الأخير في حيز الإبداع الفكري. ومن خلال أفكاره الأساسية، ينفتح أمامه مجال واسع للإسهام في ميادين متعددة: الفكر، والثقافة، والفن، والعلوم، والابتكار، والسياسة، والاجتماع.
لكن، من المهم الإشارة إلى أمر جوهري: **ليس الدين هو الذي يصل إلى هذه الميادين بذاته، بل يُعاد إنتاجه وفهمه من خلال عقول الأشخاص**. ومن هنا، تبدأ الكارثة.

يخرج من هذا الفهم البشري أخطاء فادحة؛ أخطاء لا علاقة للدين بها، بل هي صنيعة أولئك الذين فهموه على طريقتهم. كل ما يدركه الإنسان من أقوال وأفعال دينية، يراه من زاويته الخاصة. وبحسب تلك الزاوية، يسير في الطريق، ويُقدّم تأويله الخاص، ثم يطالب الآخرين باتباعه.

ويؤلمني هذا الواقع المرير، الذي يُوهم الناس بأنهم أبصروا الحقيقة، فقط لأنهم شاهدوها من زاويتهم.
لكن... أيّ حقيقة هذه؟

هناك فرق كبير بين من يقف فوق الشجرة، ومن يقف تحتها.
الذي فوقها يقول: "أرى نهايتها!"
والذي تحتها يرد: "هذه الغابة لا نهاية لها!"

السبب في هذا التعدد في الأفهام، هو أن المنطق حاضر في كل مكان. لكنه منطق معيب؛ لأنه مبني على الإدراك البشري، وما دونه يُرفض بلا نقاش.
اسأل نفسك: هل التنين مخلوق حيّ أم مجرد وهم؟
سيقول البعض: "المنطق يقول إنه مخلوق من الأحلام."
وكأن للمنطق لسانًا وشفتين، يتحدث بهما لإقناع العقل وإرضاء القلب معًا!

تخيّل لو أننا ذهبنا إلى الماضي البعيد، وأخبرنا حكيمًا قديمًا بأننا نستطيع التحدث إلى أشخاص يبعدون عنا آلاف الكيلومترات — أن يُحادث إنسانٌ في الحجاز شخصًا في روسيا في اللحظة نفسها — لقال الحكيم: "هذا مخالف للمنطق، إنه كلام عقيم!"
وهكذا، يصبح المنطق أداة سجينة في قبضة الفهم البشري.
فالمنطق ليس فيصلاً، بل مرآة تعكس ما يستطيع البشر إدراكه فقط.

ما يدركه الإنسان — وليس ما هو ممكن بالفعل — هو ما يصنع الإمكانيات.
لذلك، فإن **فهم الشخص للدين ليس حجة على الدين، ولا علينا**.
لكن المصيبة، أن صاحب الفهم القاصر يرفع صوته، ويطالب الآخرين باتباعه، لأنه يعتقد أن ما تمثّل له هو "الحق"، وأن ما وصل إليه هو "جوهر الحقيقة".

فيا سحقًا لتلك الأفهام!
ويا بؤسًا لما تبين لكم من جهل، فرضتموه على ضعاف العقول، فدمرتم به كل شيء.

تصوّر أن هناك رسامين مسيحيين، كلاهما ينتمي إلى الدين نفسه، لكن يختلفان جذريًا في الفهم.
عندما يبدأ أحدهما العمل، تختلف النتيجة عن الآخر تمامًا.

الرسام الأول (أ) يرسم المسيح وهو يحتضن خروفًا، بملامح رقيقة تفيض بالطمأنينة والسلام.
أما الرسام الثاني (ب)، فيرسمه عاريًا، معلقًا على الصليب، المسامير تخترق يديه وقدميه وأضلاعه، وعلى رأسه تاج من شوك، والدماء تسيل من جسده، وسط ألوان داكنة حزينة، وملامح مشبعة بالخيانة والأسى، لا من تلميذ فقط، بل من الجنس البشري كله.

فمن منهما اقترب من الحقيقة؟
هل الحقيقة هي تلك السكينة التي أدخلها المسيح على قلوب المؤمنين المضطهدين؟
أم هي صورة الاستسلام لواقع حالك، تتضاءل فيه أنوار الخير في عتمة الشر؟

الإجابة ليست بسيطة، لأن **كلا الرسامين امتلكا جزءًا من الحقيقة**.
لكن الجزء الآخر، الذي لم يبلغه أي منهما، عُوّض عنه بالأوهام والتصورات الشخصية التي وُلدت من معتقدات أخرى.

ومن هنا، فكل العواصف الدينية التي تراها ليست سوى ذرات قليلة من الدين، مختلطة بجبال من الوهم.
فحين يحمل المسيحي صليبه ليواجه به الشياطين، **فهو يحمل قطعة من الخشب والحديد ليحارب بها وهمًا صنعه هو بنفسه**.

إنها معركة خاسرة من البداية؛ لأن الفهم قليل... بل في كثير من الأحيان، معدوم.

تكوين حضارة دينية(3-2)

ما هي الأسس لبناء الحضارة؟
إن الإجابة عن هذا السؤال تُعد مفتاحًا لفهم العمق الديني في نشأة الحضارات وتشكيل سياساتها. فعند محاولة الإحاطة بأمر معقد متشعب، لا بد أن نعود إلى الأساس، لأنه وحده من يشرح تلك الفروع ويكشف لنا أسباب نموها.

أولًا: الاستقرار

لا يمكن إقامة حضارة دون توفّر سبل الاستقرار.
المغول، قبل ظهور جنكيز خان، لم يمتلكوا حضارة، لأنهم كانوا قبائل بدوية متنقلة، لا تعرف الاستقرار. ولإنشاء مملكة، كان لا بد من الاستقرار أولًا، والاستقرار بدوره يلد الحضارة. بل لعل الأصح أن نقول: **الاستقرار هو نار طهو الحضارة؛** لأن الوجود كله كامن في مادة أولى تحتاج للإنضاج حتى تكتمل.
وقد كان أول ما فعله جنكيز خان هو توحيد القبائل، ثم تشكيل جيش، ثم السعي لتأسيس حضارة.

الاستقرار، إذًا، هو الأساس الذي تُبنى عليه كل الحضارات.
ويشهد على ذلك أولى حضارات البشرية، الحضارة السومرية، التي تشكّلت على ضفاف دجلة والفرات، حيث استقر الناس، فانبثقت الحضارة.
ولا أظن أن تلك الحضارة قامت دون دافع ديني أو فكرة موازية للدين، فكل ما يتعلّق بها لا يزال غامضًا: من أين جاءت؟ وكيف تطوّرت؟
أسئلة لن نجد لها جوابًا قاطعًا، ولكن التفسير الأقرب هو أن بذور تلك الحضارة سُقيت بقيم الدين الأولى.

إن عجزنا عن إدراك الحقيقة المطلقة، يدفعنا أحيانًا إلى طرق باب هو الأضعف والأبشع، ولكن ما باليد حيلة.
ومحاولة فهم الاستقرار من خلال استقراء الأقوال القديمة لن توصلنا إلى يقين لا يرقى إليه الشك، بل تمنحنا تأملًا ناقصًا لحقيقة مواربة.

وحتى تتّضح الصورة أكثر، لا بد من الإشارة إلى أن الدين، رغم تشجيعه على إعمار الحياة، لم يكن ثابتًا في موقفه من الاستقرار.
فهو من جهة، يدعو إلى الزهد والتخفّف من الدنيا باعتبارها فانية، ومن جهة أخرى، يحثّ على عمارتها والعمل فيها بجد، كوسيلة للظفر براحة الخلود.

لقد عالج الدين معضلة الموت من خلال تصويره كمرحلة انتقالية نحو حياة خالدة، تتوزع بين راحة أو عذاب.
ومن هنا، أصبح الاستقرار في هذه الدنيا وسيلة لعيش يُفضي إلى نعيم الآخرة.
لكن ما أراده الدين في عمق دعوته للاستقرار لم يكن فقط الإعداد لحياة أخرى، بل تحقيق التطور والرقي في هذه الحياة ذاتها.

ثانيًا: الأرض المناسبة

كل الحضارات، في الماضي والحاضر، نشأت في أرض صالحة للاستقرار.
حتى مع تطور وسائل العيش الحديثة، ما تزال هناك بقاع على الأرض غير مؤهلة لإقامة حياة مستقرة.
لن تجد عاقلًا يختار العيش وتأسيس أسرة في صحراء الربع الخالي.
وقد يُخيّل للبعض أن الحضارة الإسلامية قامت وسط صحراء قاحلة، لكن هذا التصور خاطئ، لأن ما توفر للإسلام لم يكن في قلب الصحراء، بل على هامشها، حيث قامت الحياة، وإن بموارد محدودة.

وفي زمنٍ بلغ فيه الإنسان مبلغًا من التقدّم، تظل فكرة بناء حضارة في أماكن غير صالحة للاستقرار فكرة مستحيلة.
وإن نظرت إلى آثار الحضارات القديمة، فلن تجدها في أماكن يستحيل العيش فيها اليوم، بل في أرض كانت ولا تزال قابلة للحياة.

وفّر لي ماءً وطعامًا، وقطعة أرض صالحة للعيش، وسأصنع لك صروحًا تُطأطئ لها الرؤوس.
الأرض ليست كلها صالحة للعيش، وكلّما ازدادت صعوبة الحياة في مكان ما، قلّ عدد سكانه، وتلاشت فيه مظاهر الحضارة.

ثالثًا: المنظومة الأخلاقية

لا يمكن لمجتمع مفكك، متعطّش، تسود فيه النزعات الحيوانية، أن يؤسس حضارة حقيقية، إن لم تكن هناك منظومة أخلاقية راسخة تُنظم حياة الناس وتضبط غرائزهم.

المنظومة الأخلاقية ليست مجرد عنصر مضاف إلى عناصر الحضارة، بل هي القاعدة التي يقوم عليها كل شيء.

ولئن أخّرتها في هذا العرض، فلأبيّن أنها الأساس الأعمق، وإن جاءت بعد الاستقرار والأرض المناسبة في الظاهر.

توفر الاستقرار، وتوفر الأرض الصالحة، لا يعني شيئًا إن لم يكن هناك دافع أخلاقي لبناء حضارة.
وقد ذكرتُ سابقًا في رسالتي عن التعليم أن الأخلاق "ملكة نفسية" في داخل الإنسان، وهي صِوان النفس، ومصدر القيم الإنسانية التي تصدر عنه بالفطرة.
فالأخلاق ليست اختراعًا بشريًا، بل هي **جوهر الإنسان**، و**فهم الأخلاق نصف فهم الإنسان**.

ولذلك، لا أراك حكيمًا إن أنت اطّلعت على الأخلاق الفطرية ثم كذّبتها أو تجاهلتها، حتى لو كنتَ ذا شاربٍ أعرض وأكثف من كل حكماء الزمان.
الحكيم هو من ينظر في جوهر الإنسان، ويُعرّف الناس بالأخلاق من خلال أفعاله، لا أقواله.
فالناس ينظرون، ولا يسمعون، خصوصًا حينما يتعلق الأمر بالأخلاق.
ولهذا، يجب أن يُعرّفهم الحكيم بها بالعمل، لا بالكلام.

هذه العناصر المكوّنة للحضارة بشكل مختصر يتم اختراقها من قبل الدين، وبثّ جذوره في داخلها. ما يفعله الدين لتكوين حضارة أو التأثير على حضارة أخرى شيء عجيب، لكن لفهم القضية بشكل أعمق يجب علينا أن نعرف أولًا: من يشكّل الحضارة؟ هل هي القيم الدينية المتحرّرة غير المرتبطة بجهة؟ أم هو الفهم الخاص للدين من قبل أتباعه؟

هل الحضارات يُشكّلها الدين باعتباره أمرًا مفروغًا منه، أم أنّ الدين لا علاقة له بتكوين الحضارات؟ القضية أعقد من هذا الأمر، وسأوضّح بشكل صريح موقف وجود القيم من الحضارة.

بالمختصر الشديد: **القيم الدينية لا علاقة لها بشكل مباشر بتكوين الحضارات مطلقًا**، بل إن المكوّن الحقيقي للحضارات هو **الفهم الخاص للأفراد للحياة**، وهو الذي يدفعهم إلى تكوين حضارة بفهمهم الخاص للدين.

جميع البشر يعيشون الحياة وفقًا لفهمهم الخاص. أنا، أنتم، الجميع يعيش الحياة بفهمه الخاص. ولا يمكن لي، باعتباري باحثًا، أن أجعل الناس يعيشون الحياة بفهمي للحياة، لأن هذا الأمر غاية في العسر لأسباب عديدة:

الفهم الذي أمتلكه للحياة ليس هو بنفس مستوى فهم الشخص الآخر.

القرارات التي اتخذناها حتى نصل لهذا الفهم مختلفة تمامًا.

لن أستطيع أن أعيش الحياة بنفس مستوى الفهم الذي عاشه المسيح، هذا الحكيم العظيم. وهذه حقيقة لن أتجاوزها إلا بالأفهام الراقية. فالدين، بما يحمله من قيم، هو **منظومة لفهم الحياة،** لكن فهم هذه القيم يختلف من شخص لآخر.

على سبيل المثال، فهم جماعة KKK للقيم المسيحية كان فهمًا خاصًا بهم. لذلك، اعتقدوا أن قتلهم لأشخاص من ذوي البشرة السوداء هو تطبيق لرسالة المسيح، رغم أن المسيح لم يقتل بشرًا قط.

هم فقط فهموا ما أرادوا من القيم المسيحية، وهذا الفهم طابق فهمهم الخاص للحياة، لذلك توصلوا إلى ما توصلوا إليه. وكذلك الأمر بالنسبة لداعش في الإسلام، وكل الفرق المجرمة في الأديان. **الخلل لم يكن بالدين، بل بفهم الحياة من خلال ذلك الدين**.

الدين لم يؤسس لحضارة، بل أسس لمنظومة **فهمٍ لعيش الحياة**.

ما أطمح إليه من خلال هذه الكلمات هو إيضاح فكرة **الفوضى الحاصلة في هذه الحياة،** بسبب **الأفهام المتضاربة لعيش الحياة**. لذلك ستجد الغليان في كل مكان، وليس هناك مكان آمن وسليم في بقاع المستعمرات البشرية لأنها تحتوي على بشر يتصرفون وفق فهمهم الخاص للحياة.

وأتعجّب من الشعوب التي تدّعي الأمان بحجة أنه ليس لها أي منظمة دينية إرهابية تعيث فسادًا، ولكن الفهم المريض لبعض البشر للحياة يعرض حياة الآخرين للخطر المستمر.

خذ مثلًا: الولايات المتحدة الأمريكية، التي ترسل قواتها إلى بقاع العالم لتحرر العالم من المنظمات الدينية الشريرة، راسمةً صورة الأمان في داخلها. ولكن في زمن المعلومات لا يمكنك إخفاء ما يحصل بالداخل:

عصابات، قتلة متسلسلون، أطفال مضطربون، تجارب شريرة، متديّنون متطرفون...

كل هذه الأمور تؤدي بحياة الأفراد من دون إنقاذ لهم.

تأمّل معي، بقية العالم يحتوي على كل هذه الأمور، كل البشاعة. والحل الوحيد لاختفاء كل هذه المهازل هو **اختفاء البشر**.

لذلك، لا يمكن التخلّص من أي مشكلة من مشاكل هذا العالم إلا **بالعزلة عن العالم**، وهذا ما فعلته.

أنا لست زرادشت. في مدينتي ليس هنالك جبل أهرب إليه. لقد **هربت إلى ربي**، هو يعصمني ويحميني أفضل من أي جبل.

الفهم البشري الخاص هو الذي شكّل الحضارات، وكان هذا الفهم متبوعًا بفهم خاص للدين. لذلك أُقيمت الحضارات الدينية. البشر هم من أقاموا الحضارات، وليست الأديان.

لذلك، عندما يُقال إن "أصل الأصل" هو أصل لأصل آخر، فإن هذا الأصل **ليس أصلًا** في الأصل الآخر، بسبب **قضية الإمكان**.

لو كان بالإمكان لأصلٍ من أصول معيّنة أن يكون أصلًا لإمكان آخر، لما أصبح الإمكانان إمكانين منفصلين، ولأصبحا **إمكانًا واحدًا قابلًا للتجزئة**.

لهذا لا يمكن أن يكون الأصل الديني — أي القيم — هو نفسه أصل الحضارة. والدليل العملي على هذا هو وجود **حضارات غير دينية**.

إذا كانت بذرة شجرة التفاح هي أصل الشجرة، لا يمكن القول إن أصل الحياة هو جميع البذور. لأن للحياة أصل، وللشجر أصل مختلف.

لكن الأصول لا تكون متفرّقة في عالم الوجود، بل تكون هذه الأصول موجودة في جزئيات أصل أكبر. ووجود الأصول في جزئيات أشمل لا يعني أنها أصل بذاتها، ولكن لا يمكن القول بقيامها وحدها.

إذا كان أصل الفرد هو الأب والأم، فإن انعدام وجود هذين الأصلين لا يعني انعدام وجود الابن، لأنه كان تابعًا لهذا الأصل الذي انعدم بعد أن أنجب الابن.

الكائن الأول، الذي أوجد جميع الكائنات، أي **أصل الوجود المادي**، لا يمكن أن يُعتبر هو الوجود، ولا يمكن إيجاد الوجود خارج هذا الموجود (الكائن الأول)، إلا إذا كان هناك كائن أول مثله موجود معه، وهذا مستحيل.

الواحد لا يوجد معه واحدٌ آخر، بل ينتج العدد اثنين وهكذا دواليك.

لا فهم ثابت للحياة... ولا للفهم البشري

أصل الحضارة كان **الفهم البشري للحياة**. وهذا الفهم **مختلف**، وليس له ثبات معين بحكم **نسبية الحياة**. وإذا كانت الحياة نسبية في حركتها، فمن **المحال** أن يكون هنالك فهم ثابت لها.

ونحن لا نستطيع فهم الفهم البشري، لأن **محاولة فهم الفهم البشري غير منطقية**، باعتبار أنه **ليس هنالك فهم ثابت**.

لأني، في النهاية، سأفهم "الفهم البشري" **بفهمي الخاص**.

السفينة التي ركبها البشر رست على الشاطئ بنجاح، لكن تلك السفينة لن تبني لهم بيوتًا على اليابسة، لأن وظيفتها كانت إيصالهم إلى بر الأمان، أما من يتولى البناء والتعمير ـــ أو حتى التخريب ـــ فهم أولئك الذين وطئت أقدامهم اليابسة.

مجتمع ديني(3-3)

بعد أن تتثبت جذور الدين في أعماق الحضارة، يتشكل ما يسمى بـ"المجتمع الديني".
وأقصد به: ذلك المجتمع الذي يتخذ قراراته انطلاقًا من ضخ فكري عميق ترسّب في لاوعي الأفراد.

لكن، لا يوجد مجتمع ديني متكامل.
بل غالبًا ما يكون عقل هذا المجتمع مزيجًا متناقضًا من قيم تؤيدها التعاليم الدينية، وأخرى تعارضها.

النفس أصل الخير والشر

يجب أن نناقش أمرًا غاية في الأهمية.
هذا الموضوع كان من المفترض أن يُتناول لاحقًا في مؤلف خاص بعيد المدى بعنوان **"رسائل في الحق"**.
لكن، لتوضيح ما أنا بصدد الحديث عنه، سأعرض الآن فكرة ضخمة — **النفس** — بشكل مختصر وبسيط.

القيم الدينية جاءت لصون النفس.
فهي مصدر الخير والشر في الإنسان.
ومن ينجح في السيطرة على هذا المصدر أو فهمه على الأقل، ينجح في السيطرة على ناتجه.

تخيل أن لديك **مدينة صناعية**، تنتج أشياءً جيدة وأخرى سيئة.
فإن تولّى إدارتها شخص خبير، سينتج منها النافع.
أما إذا تولّاها شخص يجهل حقيقتها، فقد تنتهي تلك المدينة إلى الخراب والإفلاس.

وهكذا النفس.
تحتاج إلى إدارة من يعرف حقيقتها، ويفهم كيف يتعامل مع ما تختزنه من قوى.
لكن، ويا للأسف، أغلب الناس **جاهلون بحقيقة أنفسهم**.

لا كتب تُعلّم النفس

لا يمكن معرفة النفس من خلال كتب الحكماء أو المفكرين.
فالكلام الجميل لا يكشف جوهرها.
معرفتها تحتاج **وسائل عملية**، ما يسميه الحكماء: **الرياضات النفسية**.

بالنفس نعرف المعرفة المتغيرة، لأننا نحن أنفسنا متغيرون.
لذا، فإن التأمل في النفس خير من قراءة ملايين الكتب عنها.

كل إنسان له نفسه الخاصة التي، رغم أنها من نفس الطبيعة،
لا تشبه غيرها في الكيفية والتعامل.

وللوصول إلى حقيقتها، هناك **مرصدٌ واحد**، يشعّ نوره على أعين طالبيه.
ومن أراد الوصل، فعليه أن يسعى إليه.

ففي سرادقات الحقيقة، المطمورة في جوف الروح الرقيقة،
والمحاصَرة بالنفس العنيدة،
يكمن المفتاح. وفهم تلك النفس هو أول الطريق.

الأسد مكوّن من نفس المادة التي يتكون منها الإنسان: ذرات متناهية.
لكن، لا يمكننا القول بأن الأسد "إنسان".

ومع ذلك، فهما يلتقيان في بعض الصفات — حسنًا أو سوءًا.
ولهذا، حين نمدح قوة أحد، نقول: "كأنك أسد!"، وليس هذا إهانة، بل مديح.

لكن لا يعني هذا تشابه الحيوانية بين الإنسان والأسد.
فحيوانية الإنسان ليست هي حيوانية الأسد.

كذلك، لا يمكن القول بأن نفس يوسف هي نفس آدم.
كل نفس تحمل طبيعة، لكن تختلف في الكيفية.

اختلاف النفوس = اختلاف الأديان

اختلاف الأنفس يؤدي إلى اختلاف الفكر.
وهكذا، فإن المجتمع الديني لا يمكن الجزم بأنه نابع بشكل تام من القيم الدينية.

بل، كثيرًا ما يتغير الدين من أصله إلى ما انتهى إليه — وهذا غالبًا يكون للأسوأ.

ذلك أن المبادئ لم تتغير في النصوص،
بل **تغيّرت في نفوس الناس**.

وأصبحت النفس هي التي تشكّل الدين على هواها،
لا أن تتشكّل هي بالقيم القويمة.

هذا هو الجدار الفاصل بين الإنسان والقيم التي أرادت تشكيله.

النفس هي النظارة التي ترى بها الحياة

في النهاية، ليس للإنسان إلا ما سعى.
وسعيه في **إصلاح نفسه** هو السعي المشكور،
لأنه سيُجزى عليه، وستنفتح له أبواب الفهم.

فالنفس هي الأداة التي يرى بها الإنسان الحياة.
وإن كانت هذه الأداة مشوهة أو مريضة،
فإن رؤيته للحياة ستكون مشوّهة كذلك.

تخيل شخصًا مصابًا بقِصر نظر.
أدرك مشكلته، وسعى لعلاجها، لكنه حصل على نظارة محطّمة.
لم تتحقق الغاية، رغم الوسيلة الظاهرة.

هكذا النفس: لا يكفي أن تملكها، بل يجب أن تصلحها.

هذه هي المشكلة التي جعلت من الدين **فهمًا خاصًا**، لا عامًّا.
فأصبح المجتمع هو الذي يقرر الصواب والخطأ — لا من خلال القيم —
بل من خلال **نفسه**، وما فيها من ارتباك.

وبسبب **الأنا**، أصبح من الصعب على الناس الرجوع إلى المعايير الأصلية.

كلٌّ عاد إلى نفسه، لتقرر له الصواب والخطأ.

فأصبح المجتمع الديني متناقضًا:
يرى الخطأ صوابًا أحيانًا، ويرى الصواب خطأ أحيانًا.

والسبب؟
نفسٌ محتدمة، بركان على وشك الانفجار.

التحول الدراماتيكي(3-4)

دوام الحال في هذه الحياة من المحال. ولا أشير بأي شكل من الأشكال إلى أن كل تحول حاصل هو تحول خاطئ، بل أحيانًا يكون التحول هو المطلوب لحل الكثير من المشاكل.

لكن، قبل الخوض في التحولات الدينية، يجب أن أوضح أن التحول أمر حتمي بحكم المبدأ الحياتي القائم على **النسبية في التفاعل والانفعال مع الموجودات الممكنة**.

حتى نحن، فإن نسبية تحولنا تجعلنا لا نلاحظ مدى تغيرنا وتحولنا. ولكن، أليس من الرائع أن يكون هذا التحول عظيمًا؟ القليل فقط من الناس هم من يقرون بذلك التحول ويسلمون له.

ليس في هذه الحياة أمر ثابت. ومتى ما أدركت أمرًا ثابتًا، فاعلم أنك انفصلت عن الواقع.
كل شيء من حولنا في حركة دائمة ومستمرة، ولكل حركة هدف، حتى لو جهلنا هذا الهدف.
المادة والروح، كل شيء في حالة حركة... وربما لن يكون هناك سكون وهدوء إلا إذا انتهى هذا العالم. وربما لا.

أشرتُ في الكثير من المواضع إلى ضرورة فهم مبدأ الحياة البسيط الذي تسير به الأمور: **مبدأ النسبية**.

ولن أشرح نسبية المادة فقط التي طرحتها الفيزياء في ما مضى، بل اليوم سأتكلم عن **نسبية أخرى**، وهي **نسبية الطبيعة البشرية**.

لكن، قبل الخوض فيها، دعوني أوضح أولًا النسبية المادية، ثم نطبقها على ما نحاول بيانه.

النسبة في الحركة بين المواد موجودة بوجود الزمن، الذي يسجل ويحدد وجود تلك الحركة.
لكن، هذا الزمان ليس ثابتًا في كل جانب.

بالنسبة للبشر، فإن **فهم الأمور والتفاعل معها يختلف من زمن إلى آخر، ومن مكان لآخر**.
ولا شك أن التغير المادي يؤثر على الطبيعة البشرية التي تحاول أن تتأقلم.
لكن التأقلم حسب المعطيات الآنية، لا يمكن للجميع أن ينجح فيه.

لفهم الصورة بشكل أبسط، سأروي لكم بعض الأمور عن محارب الساموراي الشهير **موساشي**، الذي خاض ستين نزالًا ولم يُهزم (إلا في بعض الروايات القليلة).

ما ميّزه عن بقية المقاتلين الذين هزمهم هو **التأقلم مع الوضع الحالي**.

يُذكر أنه كان يتأخر عن كثير من النزالات، لا تكاسلًا، بل لتشتيت المنافس وإثارته.
لكن في إحدى المعارك، حين جمعت مدرسة فن قتال عددًا كبيرًا ضده، وكانوا يتوقعون تأخره... فاجأهم بالحضور المبكر وبدأ بالهجوم السريع، قاتلًا ومباغتًا، لأنه امتلك **عنصر المفاجأة** وحده.

حتى في نزاله ضد أشرس خصومه، "كوجيرو"، استخدم موساشي سيفًا خشبيًا، مما أثار غضب وتشتيت خصمه.
التأقلم والمفاجأة مع الوقت الراهن هو ما مكّن موساشي من الصمود في قرابة ستين نزالًا.

التأقلم الديني مع تغيّر الزمان والمكان كان دائمًا مدارًا لرجال دين **لا يمتلكون القدرة على التأقلم**.

وسوء التأقلم مع الوقت أدى إلى **قرارات غير عقلانية**.

مثلًا: الإسلام في الزمن العباسي كفّر علم الفلك، لأنه لم يعرف كيف يتعامل معه بالصورة الصحيحة.
وهذا التحول الخاطئ من دينٍ كان داعمًا للعلم فتح الباب لتساؤل كبير:

هل الدين يخدم الناس أم يحارب خدمة الناس؟

علماء الفلك الذين اتُهِموا بالهرطقة وتم الإفتاء بقتلهم...
هل كان الدين السبب؟ أم **سوء فهم رجال الدين** للتجديد والتطور؟

النتيجة: **تحولات رعناء طائشة** أدت لانحراف الأديان عن قيمها الأساسية.

تخيل أن هناك توأمين: أحدهما يسافر في سفينة فضائية بسرعة قريبة من سرعة الضوء، والآخر يبقى على الأرض.

وفقًا لمفهوم **تباطؤ الزمن في النسبية الخاصة**، الزمن يمر أبطأ على من يسافر مقارنةً بمن بقي.

إذا قضى المسافر خمس سنوات في رحلته، قد يكتشف عند عودته أن خمسين سنة مرت على الأرض.

وهكذا يبدو التوأم المسافر وكأنه لم يمر عليه سوى خمس سنوات فقط، بينما أخوه تقدم في السن كثيرًا.

هذا يوضح أن **الزمن نفسه نسبي وغير ثابت في جوهره**.

إذا ذهبت للنوم واستغرقت ثمان ساعات، فلن تدرك مقدار الوقت إلا بعد النظر للساعة.

أما إذا بقيت مستيقظًا، فالوقت سيمر أبطأ لأنك واعٍ له.

مختصر القول: في المستقبل سيكون لنا **مفهوم مختلف للزمن**.
لأننا سنتعرض لأمور غير مفهومة تتطلب منا فهمًا جديدًا وتعاملًا مختلفًا.

إذا كان الزمن نفسه يتغير حسب المواضع، فإن **الطبيعة البشرية أيضًا تتغير في جوهرها**.

لكن، هذا التغير في الجوهر لا يعني تغير الوجود، لأن **أصل الوجود أزلي**، بينما جوهره متغير وفق الحاضر.

دعونا نسمي هذا بـ **"التأقلم الطبيعي"**، وهو موجود في كل الموجودات المادية بحكم جوهرها المتغير.

مثال: الحيوانات حين بدأ البشر بتعبيد الأرض، اضطرت أن تتأقلم مع السيارات السريعة التي تهددها،
فتعلّمت بفطرتها كيف تتعامل مع الطرق والمركبات. وهذا ناتج عن التأقلم الحتمي.

لكن التأقلم البشري كان **صراعيًا**، لأنه قائم على **الفهم الخاص للحياة**.

تأقلم البعض مع المحدثات الجديدة اختلف حسب فكر وفهم كل شخص.
فنتج عن ذلك **قرارات تأقلمية مختلفة**.

الإنسان لم يرد التأقلم، لكن أجبر عليه بحكم التحول في الوقت والمكان.

عندما كنت صغيرًا، كنت أتساءل:

إذا سافرت للمستقبل، هل سأتمكن من العيش؟
وإذا عدت للماضي، هل سأسيطر على البشر بفعل معرفتي المتقدمة؟

الآن، إذا قُطعت الكهرباء والإنترنت عني نصف ساعة فقط، أصاب بالجنون!
فكيف سأعيش في الماضي؟
وهل أستطيع التأقلم السريع في المستقبل؟

المسألة كلها تعتمد على **التأقلم**.

يا رجل، الشعب العراقي يخرج كل صيف متظاهرًا لأنه لا يستطيع النوم أو تشغيل المكيف،
بينما في الماضي لم تكن هناك حتى مروحة!

التحول الذي تعرّض له الدين، وُوجه بتأقلم **خاطئ** من قبل **أفهام خاطئة**.

نتيجة ذلك، اتجه الدين إلى **مسارات متفرقة**.

أما القيم التي قاتل من أجلها، فقد اندثرت هناك،
ولم يتمكن البشر من التأقلم معها عند حدوث تلك التحولات الكثيرة.

دين آبائي(3-5)

في عالم الحقيقة، يسقط كل زيف إذا حل البرهان والتفسير المنطقي للأمور التي يصعب فهمها.

سبق وأن أشرنا إلى كون الإنسان يعتمد، في تفسير الأمور التي لا تُفهم، على طريقين:
الأول، هو البحث عن البرهان والمنطق في تفسير الأمر غير المفهوم.
أما إذا عجز عن تفسير هذه الأمور، فإن الإنسان يتجه إلى تعليل الأسباب بأسباب وهمية.

فلو سقط عمودٌ من أعلى المنزل وقتل سارقًا حاول اختراق البيت وسرقته، وغاب التفسير الحقيقي والمنطقي، فإن الأمر سينسب إلى "القضاء والقدر" أو "المعجزة الإلهية" التي تدخلت لقتل ذلك السارق.

لكن، هذا العمود نفسه لو سقط على طفلٍ يلعب بالقرب من المنزل، فإن تفسير سقوط العمود سيختلف. لن يبقى تفسيره "معجزة"، بل ستكثر التفسيرات باختلاف الحالات.
لكن التفسير المنطقي والوحيد، هو أن العمود كان يجب أن يُفحص للتأكد من ثباته، لكنهم نسوا فحصه، فأحدث هذه الحادثة.

العقلاء سيعرفون الحقيقة.
أما الكُسالى من الجهلاء، فسيُعطون تفسيرًا آخر حسب معتقداتهم الدينية المحرّفة، التي لا تعرف من المنطق حرفًا.

في عام 2019، عندما اجتاح فيروس كورونا العالم وأدخل البشر في رعبٍ بسبب حصده للأرواح، ذهب أغلب من أعرفهم إلى القول إن هذا الفيروس هو "غضب إلهي" أصابنا لأننا قد أفسدنا.

وتفسيرهم هذا مرتبط بالقاعدة التي ذكرتها في الأعلى.
سألت أحد المقتنعين بهذا التفسير:

"هل الله غاضب مني، فعاقب طفلًا بالفيروس ليموت؟ أو امرأة فقيرة؟ أو سكان القرى المعدمة التي غابت عنها الرعاية البشرية، خصوصًا في الدول الإفريقية التي شوهتها الدول الإمبريالية؟
هل الله يعاقب المسيئين من خلال قتل الفقراء والمساكين؟ بينما المغتصبون واللصوص قد حجروا أنفسهم في قصورهم حتى انتهت الجائحة؟"

إذا كان الرب قد أرسل الفيروس لمعاقبتهم، لكنه قتل الفقراء دونهم، فسحقًا لربٍّ جاهلٍ في تحقيق العقاب!

والحقيقة أن هذه الجائحة من صُنع البشر الحقراء، لتجربة الأسلحة البيولوجية على البشر، لتدعيم ترسانتهم التي لن تقتل سواهم.

كل الكوارث والمآسي التي حلت بنا، هي من صنع البشر.
لأن الله لا يظلم أحدًا لعقاب أحد.

مشكلة الدين الآن، هي مشكلة واحدة يتفق عليها كل الناس.
لكن عندما ترى الحقيقة الواقعة، ستراهم يختلفون باتفاقهم.

أول ما يُورّث من العائلة هو الدين والمعتقد.
لو ارتحلت إلى جميع بقاع العالم، ستجد أن العائلة تورث أبناءها الدين وهم أحياء، أما ما تمتلكه من مال أو أملاك فتورثه بعد الموت.

وهذا الموروث خاطئ أينما وُجد، حتى لو كنت مولودًا في الدين والعقيدة "الحقيقية".

عندما يُناقِش أحدهم دفاعًا عن دينه، اسأله:

"كيف وصلتَ إلى هذا الدين؟"

سيقول ـــ وأغلبهم كذلك:

"هذا ما وجدتُ عليه آبائي."

وأنا أقول له:

بل أنتم وآباؤكم في جهلٍ عظيم.

قد سألت نفسي:

لماذا يتبع الناس آثار آبائهم حتى يهتدوا بها إلى الله؟
أليس من الأفضل الاهتداء إلى الله بآثار الله؟

استغرقني الجواب وقتًا طويلًا، لكني توصلتُ إليه في النهاية.

وبحثي عن الجواب طوال تلك الفترة، من غير ملل، قد استوفاني نصف الجواب.
أنا لم أكن كسولًا، بل كنت أبحث من دون كلل.
لكن بقيَ الناس، وقد أصابهم الكسل، فوجدوا كل ما يمكنهم من العيش، فعاشوا به.
وبسبب الكسل عن الذهاب للبحث، وُلدوا في هذه الدنيا وهم يريدون عيشها بكل قوة، فآثروا أن يأخذوا ما رأوا عند آبائهم، حتى يعيشوا أكبر قدرٍ من اللذة المادية.

يُولد الشخص وهو يمتلك بيتًا وطعامًا وكل مقومات الحياة التي وفّرها له أبواه.
هل سيترك كل هذا الجاهز الحاضر، ويذهب للبحث واكتشاف الحياة التي وُلد فيها؟
طبعًا لا.
سيُصاب بالكسل، ويبقى متّبعًا لآثار آبائه الجاهلة الخاطئة.

أصبحت تلك القيم القويمة التي أتى بها الدين نِسيًا منسيًّا، بسبب الفهم البشري الفردي للدين، وبناء المبادئ والقيم بناءً على تلك الأفهام الفردية الخاطئة.

ومن ثم، وقع البشر في المحظور، من خلال أخذ الدين من أفواه الرجال ومسالكهم، مخالفين بذلك دعوة الحكماء بالبحث الذاتي عن الحقيقة، وتحقيق الكمال الإنساني الذي دعوا إليه.

ما حصل، أدّى بالأديان كلها، بلا استثناء، إلى التحريف والتأويل وفقًا للأهواء الشخصية الفردية.

الصراع النفسي المزدوج(3-6)

مشكلة **ازدواج الشخصية** في المجتمع بشكل عام مشكلة قديمة، ومازالت إلى يومنا الحاضر قائمة.
وحاول الكثير من الحكماء عبر التاريخ هدم ازدواج الشخصية، لكنهم لم ينجحوا بذلك.
وقولي إنهم لم ينجحوا هو احترامًا لهم، لأنهم في الحقيقة فشلوا، ولا أستطيع من الباب الأخلاقي أن أُقلِّل من الجهد الذي وضعوه لحل هذه المشكلة.

دعوني أوضح سبب عجز كل هؤلاء الحكماء العظام عن حل مشكلة ازدواج الشخصية.

لقد درسوا وفهموا ما هي النفس البشرية بشكل معمق ودقيق.
مطالعة فرويد هي دليل قاطع على هذا الاهتمام البشري بالنفس.
فهم الحكماء للنفس البشرية كان أمرًا عظيمًا. لقد علموا أين تكمن كل أخطاء النفس البشرية، وكيفية فهمها.
ولكنهم أخطأوا في طريقة نقلهم للمعرفة التي حصلوا عليها.

لا يمكنك أن تشرح فهم النفس لأرسطو أو ابن سينا أو أي حكيم إلى بقية الناس الذين لن تكون لهم القابلية على ذلك الفهم.

التعليم يحتاج إلى مراعاة الفوارق

إذا أردت أن تعلِّم شخصًا علم الرياضيات، يلزمك أمران فقط:

1. أن يكون الشخص الذي ستعلمه علم الرياضيات **يريد** أن يتعلم ذلك العلم.

2. أن تبدأ معه من النقطة التي يمكنه أن ينطلق منها.

على سبيل المثال، هناك فرق بين طريقة تعليم شخص يعرف كيفية حل المعادلات التفاضلية، وشخص لا يمكنه أن يجمع ويطرح الأعداد.

أي يجب الإقرار بمراعاة الفوارق المعرفية لدى كل متعلم.

لفهم الأمر بشكل أكبر، لنفترض أن هناك شخصًا يمتلك من الصفات النفسية البشعة الكثيرة، وأبرز صفة امتلكها هذا الشخص هي **الخبث**.
هذه الصفة إذا لم تُزال في بدايتها، ستنمو لتصبح مع مرور الوقت **شرًا خالصًا**.

كيف ذلك؟
أنصت إليّ جيدًا...

الإنسان إذا امتلك صفة، سيُطبقها بعد فهمه لها.
وبعد تطبيقها، تأتي مرحلة القرار، أي مرحلة **الإقرار بها أو رفضها**.
وسيقبل بها إذا اختفت أو انتفت الصفة المعاكسة لها.

إذا حل الخير اختفى الشر، وإذا اختفى الخير حلّ الشر.

لذلك، فإن هذا الشخص إذا لم يجد في داخله ما يُعارض ويُقاوم تلك الصفة الخبيثة، **بقيت وارتقت**.
حينها سيصبح هذا الشخص مندفعًا بصفة الخبث لعلاج كل مشاكله الحياتية.
سيستعمل الخبث مع الناس للحصول على المتطلبات التي تدفعه لعيش الحياة وفق **مفهوم خاص امتلكه**.

عدم تمكن الفرد من **فهم نفسه** هو السبب في الكثير من الكوارث التي يتخذها الفرد.
ولن تُعالج هذه المشاكل إلا إذا تمكن هذا الشخص من فهم **جوهر نفسه**، وطبق ما هو الأفضل لها **لتعيش حياة فاضلة**.

كل هذه الصفات ـــ الصدق، الأمانة، المحبة، المساعدة، الطيبة وغيرها ـــ تكون نابعة من النفس البشرية.
وليس هناك شخص لا يمتلك واحدة أو أكثر من هذه الصفات.

من خلال تعرفي على الكثير من الناس، وجدت أن الجميع يمتلكون صفات جيدة نقية.
حتى لو امتلك جميع الصفات السيئة، ستكون هناك صفة هي أمله الخير،
و**إذا حاول فهم نفسه**، ستكون تلك الصفة هي المنقذ له.

جميع المخلوقات تمتلك **الخير الفطري** في داخلها،
ولكن هذا الخير مرهون بفهم الشخص **لجوهر نفسه**.

النفس البشرية هي أكثر أنفس المخلوقات **إثارة للشفقة**.
صُممت في صميمها لتكون مخلوقًا متكاملاً،
ولكن فيها من التعقيد ما يجعلها **ترغب في الحيوانية**.
وهذا هو **ازدواج النفس البشرية**.

عندما يحل الدين بقيمه الجميلة في النفس البشرية،
التي تمتلك من القيم القويمة والملكات الجميلة ما يحفزها للخروج والطلب لأن تكون كاملة،
فإن تفاعل القيم والأفكار الخارجية مع الفطرة يقسّم النفس إلى قسمين:

1. **قسم متفاعل مع المادة،** ولا يعرف غيرها لذة وعيش.

2. **وجزء آخر لا يعتقد بوجودها الجوهري** في حياته، ويطمح للكمال الحقيقي.

عندما يحل الدين، فإنه يأتي بقيم أخرى **معارضة للنفس البشرية الحيوانية**.
وفي هذه النقطة، يحصل الازدواج في النفس.

يصبح جزء منها طالبًا لأمور، **جزؤها الآخر رافض لها**.
سيتحتم على الفرد فعل الكثير من القرارات غير المستقرة،
بسبب **عدم قدرة الفرد على استقرار نفسه**.

والحل الوحيد لحل هذه المشكلة هو:
الفهم العملي للنفس، الذي **طرحه الدين** وتناوله **بفكر وتدبر،**
بعكس تناول الدين في الوقت الحالي له.

لم أرد أن أتكلم بموضوع النفس بشكل معقد مثلما تكلم به الحكماء السابقون،
لأني أرى أنه من الأفضل شرح النفس بشكل **أكثر بساطة للجميع** ليصلحوا أنفسهم بحثًا عن الاستقرار.

جلب المصطلحات المعقدة لن ينفع المتلقي بشكل كبير،
لكن طرح الفكرة الأساسية سيتح له الخروج للبحث عن ذلك الموضوع الذي **يصير اهتمامه**.

الحل العملي لحل مشاكل النفس طرحه الدين بشكل صحيح.
مفهوم الدين لضبط النفس **ثابت،** نابع من القيم الفطرية.
لكن **تطبيق** ذلك المفهوم يختلف من فهم إلى آخر.

كان الدين يركز على جعل الشخص **مؤمنًا** حتى يتم تطبيق ذلك عليه،
لأن الدين كان يستخدم **نظام الثواب والعقاب** للأفعال الناتجة من الفرد.
وهذا هو **الحل الوحيد الذي عالج هذه المسألة واقعيًا**.

لكن تطبيق هذا المفهوم في السابق **لا يمكن أن يُطبق في الحاضر،** بسبب **اختلاف الأفهام**.

في الماضي، كان الشخص المؤمن إذا أقبل على أمر سيء،
يفكر مباشرة **بأمر العقاب الإلهي** لأنه سمع أن الإله سيصلخ ويمحق ويعذب كل آثم.
هذا الترهيب كان نابعًا من **مفهوم شخص** تأمل فكرة الثواب والعقاب.

لكن هذا **لا يمكن أن يُطبق الآن،** بسبب تغير فهم الشخص عن الواقع،
وعدم تصديقه للكلام الذي غاب عنه **البرهان المادي**.

وهذه هي **أكبر مشكلة في العصر الحالي**.
وإذا لم تُحل، ستحدث **خرقًا أخلاقيًا** يقودنا نحو التهلكة.

الآن، الشخص **مُعلق بأمرين**:

1. **افتقاده للإيمان بالدين،** وهذا منطقي بسبب الصورة التي وصلته عن الدين.

2. **ازدياد المعرفة**.

الفرد الآن **لا يستطيع أن يؤمن بخارج حدود المادة،**
لأنه علم الزيف الذي نتج من **خيال الناس الذين شكلوا ورسموا الفكر الديني**.

هل أحترم المرأة كإنسان محترم كما دعا الدين،
أم أحتقرها كما دعت العادات والتقاليد التي امتزجت بالدين؟

تخيّل معي شخصًا مسيحيًا مؤمنًا، يمسك بيده الإنجيل ويصرخ في وجه المارة:

"المسيح يحب جميع أبنائه، وعلى أبنائه أن يتسامحوا ويحبوا بعضهم بعضًا."

هذا الشخص، كيف ستقنعه أن ما يعتقده **نابع من فهمه الخاص المتغير؟**
وكيف ستخبره أن المحبة والسلام التي يدعو إليها، كانت دعوة المسيحيين أنفسهم **عندما كانوا يجوبون العالم حاملين معهم صليبًا كبيرًا ليبارك حملاتهم التي تقضي على الكفار؟**

الشخص إذا كان يمتلك **مشكلة بسيطة نفسية** وتوجه بنفسه لحلها،
قد يصادف أفهام الحكماء، الذين ربما **سيُمرضونه** ويجعلون منه كتلة من المشاكل النفسية المضطربة.

ليس على الفرد الاطلاع على مئات الكتب حتى يعرف نفسه،
التي **هي موجودة عنده،** وليست موجودة في الكتب.

نفسك التي **تعيش معها،** وتغذيها بكل ما تطلبه من تغذية حياتية...
ابحث عنها في داخلك ـــ ذلك مكان وجودها.
نفسك لم تكن موجودة في الكتب منذ البداية.

الفصل الرابع

انحراف الدين(4-1)

الانحراف الديني الفكري لا أقصد به الانحراف الأخلاقي، بل أقصد الانحراف عن المسار الأصلي الذي انطلق منه، تلك النقطة الثورية التي انطلقت مخترقةً كل الأفهام والخوف، جالبةً كل الحقائق بخط الحروف، حادت عن مسارها ثم انحرفت بعيدًا.

ولفهم الانحراف الذي حصل، يجب أن نفهم المرحلة الأولى التي جعلت من الانحراف ممكنًا، وهي الانحياد عن المسار قليلًا، ولكن سرعان ما أصبح هذا الانحياد غير راضٍ عن المسار القديم، فأخذ بالانحراف.

السبب المنطقي الوحيد، العقلي، لهذا الانحياد الذي أدى إلى الانحراف هو الفهم المختلف للسير في المسار.
فعندما يظن الفرد أنه يعرف طريقًا آخر للسلوك، لا يمكننا القول سوى إنه يعرف ذلك الطريق بسبب فهمه الخاص، والمطلوب منا في هذه الحال هو أن نعرف فهمهم وننقد جوهره، ثم بعد ذلك ننظر إلى أجزائه المكونة.

الحقائق مسكونة في عقول من فهموا جوهرها كما هو، لا بما هو.
أنا، عندما أقول إن الشجرة الموجودة في حديقة منزلي حقيقة، فذلك بسبب وجود جوهرها عندي، دونما تمثّلها المادي، الذي سيُعدَم عن الوجود في يومٍ ما.
لكن جوهر الشجرة لا يمكن أن يُعدَم، ولذلك يكون هنالك وجود للنباتات ونُصدِّق بوجودها.
أما إذا اختفى وجود جوهر الشجر، اختفت كل التجليات المادية لذلك الجوهر بالنسبة لنا.

ينحرف الدين عن مساره الأصلي ويتخذ مسارات واتجاهات مختلفة بسبب غياب جوهر الدين عن الناس، وانشغالهم التام بقشور ذلك الجوهر، ظنًّا منهم أنه هو هو نفسه.
وكلّما كان الجوهر مجهولًا أكثر، كانت درجة الانحراف أكبر.

ويمكن وصفهما على أنهما خطّان بينهما زاوية درجتها 30؛ وكلما ابتعد الخطّان عن بعضهما، زادت المسافة بينهما، حتى تتخذ كل الأشكال من الزاوية القائمة إلى

المنفرجة.
وحينها سيكون الخطان متفقين في نقطة الانطلاق أو الأصل، ومختلفين في الاتجاه.

هكذا هي الحياة، كل شيء له جوهر واحد انطلق منه، ثم اختلفت الأشياء فيما بينها.
ولكن بما أن لها نفس الجوهر، فإن لها نفس النهاية، لأن البداية هي أكبر دليل على النهاية.

المفهوم(4-2)

هو الفكرة أو التصور الذهني للشيء أو الخاصية.
على سبيل المثال، مفهوم "الشجرة" هو الفكرة المجردة التي تطرأ في ذهنك عندما تفكر في الشجرة بشكل عام، دون الإشارة إلى شجرة معيّنة، هذا إذا كان تصورًا ملموسًا. وهناك التصور المجرّد مثل العدالة، على سبيل المثال. وهذا التصور قد يعتمد على الخبرة، المعرفة، أو حتى الخيال.

المفاهيم عادة ما تكون غير محددة بالزمان أو المكان، أي أنها تمثل صفات أو خصائص عامة.

خصائص المفهوم:

مجرد: المفهوم ليس شيئًا ماديًا يمكن لمسه أو رؤيته، إنه تصوّر موجود في العقل.
على سبيل المثال، "الكرسي" كمفهوم هو مجرد فكرة، بينما الكرسي الذي تجلس عليه هو شيء مادي.

عام: المفهوم لا يقتصر على شيء واحد، بل يشمل كل الحالات الممكنة لهذا الشيء.
مثل مفهوم "الماء" الذي يتضمن كل أشكال الماء: في البحيرات، الأنهار، وحتى الماء المثلج.

ثابت نسبيًا: المفهوم قد يبقى كما هو حتى لو تغيّرت المصاديق.
فمثلًا، مفهوم "العدالة" يبقى ثابتًا في معناه، حتى لو تغيّرت الطريقة التي تُطبَّق بها العدالة في الحياة الواقعية.

لا يتعلّق بزمن أو مكان معين: المفهوم موجود في العقل، بغضّ النظر عن الزمان والمكان.
مثلًا، مفهوم "السيارة" يمكن أن يوجد سواء كانت السيارة التي تفكر فيها في اليابان أو في أمريكا، وسواء كانت في القرن العشرين أو الواحد والعشرين.

هذه الخصائص التي تشكّل المفهوم منبعها إنساني خالص.
أي أن هذه المفاهيم التي يعتبرها المنطقيون ثوابت، لكن مصاديق هذه المفاهيم توحي لنا برؤية تحتاج إلى إجابات أكثر.
فلو كان المفهوم ثابتًا لدى الجميع، لماذا يكون مصداق ذلك المفهوم متعدّدًا؟

سيكون الجواب على ذلك هو أن فهم الأشخاص لمفهومٍ معيّن ليس فهمًا واحدًا، لذلك تتعدد المصاديق بتعدد فهم تلك المفاهيم.

المفاهيم هي أساس اللغة. الكلمات التي نستخدمها تمثل مفاهيم.
فالكلمة "كتاب" تمثل المفهوم المجرد للكتاب، والكلمة "إنسان" تمثل مفهوم الإنسان.
هذا كلام متفق عليه من قبل علماء المنطق.

لكني أعتقد أن اللغة هي سبب عدم فهمنا الكامل للمفاهيم كما هي.
ولا أقصد المفاهيم المجرّدة، بل أقصد المفاهيم التي تحتاج إلى أكثر من العين لرؤيتها.

اللغة في المفاهيم المجرّدة تكون صحيحة الفهم، بسبب وقوع المفهوم على أحد الحواس.
إذا قلنا "جبل" سنفهم ما هو هذا المفهوم دون الرجوع إلى القياس والتحليل لفهم ذلك المفهوم.
سيكون مصداق الجبل واضحًا، لأنك ستحتاج إلى حاسة البصر لفهم ذلك المفهوم كما هو، من غير اعتقاد.

ربما العائق الوحيد في هذه النقطة هو كيفية النطق والكتابة في اللغات للمفهوم الواحد.
لكن لو قلتُ لك: ما هو مفهوم "الحب"؟
فسيكون ذلك المفهوم صعب الفهم، لأننا نحتاج إلى أداة أكثر قوة من الحاسة التي نفهم بها المفاهيم الظاهرة أمامنا.
وهذه القوة هي العاقلة.

وهنا تكمن المشكلة:
ليست هناك لغة في جميع الحضارات البشرية قادرة على أن تجعل مفهوم مثل الحب حاضرًا عندك كما يحضر مفهوم الجبل إلى عينك.

في أحد الأيام، كنت أسير إلى منزلي بعد أن خرجتُ من مكتبة كنت أقرأ فيها لأحد كبار الحكماء عندي.
لكن الذي أخرجني من المكتبة ليس الشعور بالرضا، بل شعرتُ بالإحباط، لأني لم أفهم من كلمات ذلك الحكيم كلمة.

أخذتُ أسير وأنا غارق في حيرتي التي جعلتني لا أشعر بطريق، ولا حتى بريح تلامس شعري.
لماذا لم أستطع أن أفهم كلامه؟
هل إن عقلي عاجز إلى هذه الدرجة؟
عاجز لدرجة عدم القدرة على فهم جملة واحدة؟

لكن في الحقيقة، السبب لم يكن عقلي، ولا عقل ذلك الحكيم الرائع.
كان السبب هو **اللغة**. لقد كانت حاجزًا بيني وبينه، حاجزًا ضخمًا لا يمكن هدمه.

اللغة لا تستطيع أن توضّح مثل هذه الأمور التي يجب الشعور بها، كما نشعر ببقية المفاهيم من خلال حواسنا.

القيم القويمة التي جاء بها الدين كانت لها مفاهيم متعددة الأفهام، لذلك كان من الصعب جدًا معرفة **مصداق** ذلك المفهوم والوصول له من خلال التدبر العقلي.

العقل وحده لا يكفي لحل مشكلة **نسبية فهم المفهوم**.
وخير دليل على عدم قدرة العقل على فهم المفهوم، هو أن المفاهيم التي هي نابعة من القيم ليست مادة عقلية بشكل تام، والتأمل العقلي الخالص غير متمّم لعملية الفهم وحده.

إن أول قيمة من القيم الفطرية هي **الإيمان القلبي** بتلك القيم.
لأنه لا يمكن للشخص أن يتقبّل ما تتصارع عليه الرغبة النفسية.
ولكن إذا رغب القلب بأمر، سيّر كل القوى النفسية لذلك الأمر.

إذا فُتن الإنسان بحبٍّ قلبي لإنسان آخر، سيكون ذلك الإنسان جاعلًا من نفسه طوعًا للموجود في قلبه.
سيسخّر خياله وتفكيره ومشاعره، وكل لحظة تمرّ عليه، للشخص الذي أدخله إلى قلبه.

الرؤية القلبية إذا آمنت بأمر وأحبته، ستسخّر حتى العقل لخدمة ما تؤمن به.

إن مفاهيم القيم يجب أن يؤمن الفرد بها **إيمانًا قلبيًا** قبل أن يتأملها لتطبيق مصاديقها.
وإن أي إيمان قلبي لأي مفاهيم خاطئة يؤدي بالفرد إلى الخطأ والهلاك.
لذلك، على الفرد، كما قلت مرارًا، أن يفتش عن تلك القيم في داخله ويُخرجها إلى قلبه وعقله.

إن **ثنائية العقل والقلب** هي من تجعل الممكن ممكنًا في داخل وواقع الإنسان.
وما دون هذه الثنائية، هي مجرد محاولات ضعيفة لا تُغني.

فـقلب دون عقل **محطَّم،**
وعقل دون قلب **ضائع**.

المصداق(4-3)

هو التحقّق الواقعي أو التطبيق العملي للمفهوم في العالم الخارجي. بعبارة أخرى، هو الشيء الحقيقي أو الفرد الذي يُمثّل أو يُجسّد المفهوم.
إذا كان المفهوم هو فكرة أو تصوّر ذهني، فإن المصداق هو وجود هذا المفهوم في الواقع.

فعلى سبيل المثال، مفهوم الشجرة هو الفكرة العامة التي تشمل جميع الأشجار، أما مصداق هذا المفهوم فهو الشجرة التي تراها في حديقة منزلك أو في أي مكان آخر، والتي تُمثّل هذا المفهوم في الواقع.

خصائص المصداق:

محدّد:
المصداق هو شيء معين أو فرد معين في العالم الواقعي.
فمثلًا، إذا كان لدينا مفهوم "الطيور"، فإن الطائر الذي نراه يطير في السماء هو مصداق لهذا المفهوم.
وإذا أخذنا مفهومًا أشمل مثل "الطيران"، فإن تحقّق هذا المفهوم سيكون بمصاديق

متعددة: الطائرات، الطيور، الحشرات... وكلها ترجع إلى مفهوم واحد هو الطيران.

ملموس أو واقعي:
المصداق هو الشيء الذي يمكن إدراكه بالحواس.
بينما المفهوم يوجد في العقل، فإن المصداق هو الموجود فعليًا في العالم الخارجي.
ومتى أدرك الإنسان أمرًا في الواقع، حاول عقله إعادته إلى المفهوم، حتى يستطيع فهم أو إدراك ماهية ذلك الشيء.

مرتبط بالزمان والمكان:
المصداق يوجد في مكان وزمان محددين.
فمثلًا، إذا كان مفهوم "السيارة" عامًا، فإن السيارة التي تقف الآن في مرآبك هي مصداق لهذا المفهوم، وهي مرتبطة بزمن ومكان محددين.

إن المفهوم يمكن أن يوجد في عقل الإنسان كتصوّر، وهذا التصوّر قد يحتوي على المصداق معه في العقل نفسه.
فإذا كان "الجبل" كمفهوم موجودًا في العقل، فلا بد أن يوجد مصداقه كذلك في العقل، حتى إذا شاهده الإنسان في عالم الواقع، عرف أن هذا المصداق يرجع لذلك المفهوم.

ولا يمكن للإنسان أن يمتلك مفهومًا من غير مصداقه في العقل، وليس من الضروري أن يكون هذا المصداق موجودًا في الواقع.
لذلك يمكنك أن تتصور مصداقًا لمفهوم "التنين" في عقلك، رغم عدم وجوده في الواقع.

بل أكثر من ذلك، **لا يمكن أن يوجد مفهوم لدى الإنسان في عقله دون أن يوجد معه مصداق، حتى يستمر في الوجود داخل العقل**.
فإذا لم يجد الشخص مصداقًا واقعيًا لشيء ما، سيصنع له مصداقًا وهميًا ليُبقيه حيًّا في عقله.
فلو لم يعرف الإنسان مصداقًا حقيقيًا لمفهوم "الجبل"، فسيصنع مصداقًا له انطلاقًا مما يمتلكه من معرفة.

وهذه المسألة العقلية تتضمّن مفاهيم فطرية لا يُخلق إنسان بدونها.
مثل مفهوم الخالق، يولد الفرد وهو مُجبر فطريًا على امتلاك مصداق لذلك المفهوم.
وهذا المصداق يتشكّل بناءً على معرفة معينة، ولذلك كانت مصاديق الخالق عند الناس مختلفة.
وكذلك مفاهيم فطرية أخرى مثل:

مفهوم الأخلاق

مفهوم الموت

مفهوم الوقت

كلها يولد بها الإنسان، ولا تُولد معه فقط.

فهم المصاديق وفشل التطبيق:

كل مصداق هو **فهم خاص لمفهوم معين،** وليس كل مصداق هو **فهم حقيقي** لذلك المفهوم.
فجميع الأديان لها مفاهيم، ولها أشخاص حاولوا تطبيق هذه المفاهيم.
وقد ترى بعض المصاديق في الأديان جميلة، وترى مصاديق أخرى في نفس الدين قبيحة.
وسبب ذلك: **فهم من طبّقوا ذلك المصداق**.

جميع الأديان انحرفت عن مسارها المرسوم بسبب فهم الأفراد الخاطئ لمفاهيم الدين.
فالخلل لم يكن في المفاهيم ذاتها، بل فيمن حاولوا تطبيقها وفشلوا في ذلك فشلًا ذريعًا، ونجحوا في تطبيق مفاهيم أخرى قد لا تكون أساس الدين.

ولهذا السبب، أصبح الدين يبدو ضبابيًا عند كثيرين، بسبب تشويه صورة مفاهيمه من خلال التطبيق الخاطئ.
وهذه **الصورة الضبابية** أثّرت تأثيرًا عميقًا على فهم المفاهيم نفسها، وأدّت إلى

التشكيك فيها.
وهذا **التشكيك** هو الذي أزال ـــ ولا يزال يزيل ـــ كثيرًا من الفهم الواضح لبعض المفاهيم.

سوء فهم المفهوم(4-4)

رأت العين طريقًا، فأخذت تصرخ: إني أرى طريقًا.
لكن حاسة الشم قالت: أنا لا أشم طريقًا.
هرعت حاسة السمع وقالت: أنا أيضًا لا أسمع طريقًا.
انتفضت حاسة الذوق وقالت: أنا لا أتذوق طريقًا.
وقالت حاسة اللمس: أنا لا ألمس طريقًا.

هنا، كان العقل موضوعًا موضع القاضي الذي لا يمتلك أي ديمقراطية في اتخاذ القرار.
قال العقل: من يصوّت على وجود الطريق؟
صوت واحد لوجود الطريق، وأربعة أصوات لعدم وجوده.
لم يفكر القاضي، وقال مباشرة: الطريق موجود.

احتج المعارضون وقالوا: نحن الأغلبية، ويجب أن يُحكم القرار بحكمنا. وهذا هو المنطق في الديمقراطية؛ كيف نثق بفرد ونجحد البقية؟ العين فقط هي من أحسّت بوجود الطريق، والبقية لم تُحسّ بذلك.

لماذا أقرّ العقل بوجود ذلك الطريق فقط بشهادة حاسة واحدة، وعارض أربع حواس أقرت بعدم الإحساس به؟
لأن العقل هو الأعرف بقدرات تلك الحواس، وهو يعلم أن ما تراه العين لا يمكن أن تسمعه الأذن أو يشمه الأنف، وما تسمعه الأذن لا تراه العين أو يشمه الأنف. إذا رأت العين حقيقة، يجب أن يُسلّم العقل لتلك الحقيقة، لأنه قد صُقِلَت تلك الأدوات لمساعدته في فهم الحقائق.

وهذه الحواس هي التي مكّنت العقل من التصورات العقلية، وفتحت أبواب التساؤلات التفقهية، وإدارة دفة التفتيش في الماهية.
وليست لهذا العقل خمس حواس، وإنما ما يدركه من الحواس هي الحواس الخمسة فقط.

أما العقل، فلديه أكثر من تلك الحواس الخمسة.
وعلة عدم تمكّن الفرد من امتلاك أكثر من هذه الخمسة هو اقتناع العقل بعدم الحاجة، لأن نفس ذلك الفرد لا تعرف سوى المادة، وما تحاول استكشافه فقط هو تلك المادة.
ولذلك يرى العقل أنه يحتاج فقط إلى تلك الحواس حتى يؤدي عمله.

الشعور بالحاجة هو الذي يحدد ما يمكن للعقل العمل به وفعله.
فعندما يشعر العقل بالحاجة إلى رؤية النار، فإنه لن يستدعي قوى أخرى لا تتفق مع هذا المطلب.
وإن مطالب العقل هي العيش في الدنيا في الأساس.

الإنسان محكوم بازدواجية الشخصية الثابتة، وهي: **المادية والروحانية**.
يجب على المادية والروحانية أن تتزنا لدى الفرد، من خلال تقبّل الأمور الروحانية التي تُتمّم المادية.
وهذا التقبّل للأمور المادية لا بدّ منه، حتى لو تعارضت المسائل المادية مع الأمور الروحانية، حيث سيتجه الإنسان إلى الأوهام لإزالة تلك العوارض.

باختصار: الإنسان يمتلك طبيعة مادية وروحية في نفس الوقت، ولا يمكن إسقاط أحد الأمرين إطلاقًا.

الطبيعة الإنسانية الروحية والمادية تتخذ اتجاهين:
الأول، إذا كان ماديًّا، سيسير الجانب الروحي من أجل الجانب المادي.
أما إذا كان الاتجاه روحيًّا، فسيسير المادة لذلك الاتجاه.
وهذه هي مشكلة الطبيعة البشرية.

وهذه الطبيعة تعطي بطبعها فهمًا مختلفًا عن الآخر لأي مفهوم.

مثال ديني على تلك الطبيعة:
في مسألة مفهوم الصدقة، يتصدّق صاحب الاتجاه الأول لأنه يعتقد أن ماله سيكثر ويُبارَك من قبل الرب،
أما صاحب الاتجاه الآخر، فيتصدّق لأنه يعتقد أن مساعدة الفقير والتقرب منه هو رحلة خالصة إلى الإله.

دوافع تطبيق ذلك المفهوم اختلفت، وكل شخص يؤيّد أحد الأشخاص بناءً على الطبيعة الخاصة به.
أما إذا تعمّقنا بأفهام الاتجاهين ـــ بمعنى: لو أخذنا اتجاهًا واحدًا لمعرفة عدد أفهامه المختلفة للمفهوم الواحد ـــ

سنرى العديد من الأفهام المختلفة،
ولكن سلوك وسير تلك الأفهام يكون في نفس اتجاه تلك الطبيعة.

اليد المقطوعة(4-5)

أتى شخص مقطوعة يده — لندعه (أ) — إلى شخص آخر نُسميه (ب)، يطلب منه المساعدة لإيقاف نزيف اليد والألم الذي يشعر به.
لكن المشكلة كانت في أن (ب) لا يثق بـ(أ)، لأنهما يختلفان في الانتماء، ويعتبره كاذبًا إذا تحدث. وكان بجانب (ب) شخص ثالث — (ج) — يعادي (أ) بشدة ويعارضه في كل شيء.

قال (أ) مخاطبًا (ب):
"أرجوك، أحتاج إلى مساعدة. هذه يدي قُطعت، والآن الدماء لا يمكن إيقافها، وروحي بدأت تخرج إلى غير مكانها."

نظر (ب) إليه، لكنه لم يتخذ قرارًا. لقد تردد في تصديق قوله، لأن مصدره غير موثوق.
وهنا تدخل (ج) لينشر الكراهية التي تنبعث من **سوء الفهم**:

قال (ج):
"لا تصدقه! إنه كاذب، محرف للحقيقة. يده غير مقطوعة، هذه كلها مسرحية نسجها بإتقان ليقنع الجمهور بالانحراف، الذي سيسميه في نهاية المطاف الحقيقة."

رد (أ):
"كيف أثبت أن يدي مقطوعة حتى تصدقون؟"

قال (ج):
"اعترف أن ما أنتم عليه ليس حقًا، وأنك غارق في الظلال."

قال (أ):
"لكن هذه يدي أمامكم، ما الزيف بها؟ أليست مقطوعة؟ ألا تراها؟"

رد (ج) بازدراء:

"لا نصدق ما نرى، بل نصدق ما نريد أن نصدق. وما نريده هو الحق، لأن إرادتنا هي الحقيقة في كل حالتها.
أو ربما... ما نراه ليس موجودًا، وما لا نراه هو الموجود.
أليس الله غائبًا عن أبصارنا؟ هل هو غير موجود بيننا؟"

قال (أ):

"ما تراه أعيننا هو المادة. أما ما دونها، فهو موضوع للتحقيق والبحث البرهاني.
الله لا يمكن أن تراه الأعين المادية، لأن في رؤيته المادية تجزئة وحدّ له، وهذا محال.
لذلك، يا (ب)، صدق دعواي، لأني أريتك ما رأيت، وأسمعتك ما تراه."

رد (ج):

"لا تصدق بما يقول يا (ب). هو يدعي أن الله لا يمكن أن يكون في المادة، ويصفه كأنه نسيج وهمٍ من عجز أفكارنا عن فهم الواقع.
الله الذي يؤمن به ليس سوى وهم اختلقه ليجيب عن بعض الإشكالات التي عجز البرهان العقلي الواقعي عن حلها.
وإذا كنا نرفض وجود ما لا نراه، فهل نرفض أيضًا وجود مشاعرنا التي لا تُرى؟"

قال (أ):

"أنت تنكر أن يدي مقطوعة، وخلقت وهمًا يصدقك الناس عليه.
لكن الوهم، وإن صدقه الناس، لا يمكن أن يكون في ذاته حقيقة.
وعند الوصول لذات ذلك الوهم سندرك أنه غير موجود، مثل السراب الذي يراه التائه العطشان.
يسير إليه، فلا يجده، فيستمر بالذهاب نحوه ولا يجده، فيدرك أن الوصول له مستحيل.
هكذا هو تصديقكم في الحياة؛ ما ترونه سرابًا تعتبرونه حقيقة حتى لو لم يكن له وجود مادي.
مثلما صرخ السراب بالواقعية في وجوه الضائعين."

قال (ب):

"ما تراه عيوننا نصدقه، وما لا تراه لا نصدقه.
رأيت ربي بعيني، وعيوننا قالت لا نراه.
بيننا نحن الثلاثة والحقيقة حاجز ضخم، وهذا الحاجز هو حقيقتنا نحن.

أنا لا أثق بك يا (أ)، ومن أثق به يكرهك. وعندما أطلب الحقيقة ممن يكرهك، يظلمك.
لذا سأقول: يدك مقطوعة، وأنت على حق، ويدك غير مقطوعة، وهو على حق.
ومات الحق."

هكذا كانت البشرية منذ أمد بعيد، تناقش القضايا المختلف فيها بهذه الصورة المؤلمة.
لا يبحث الجميع عن الحق، لأنهم دائمًا يظنون أنهم على حق، ويقاتلون لأجله، حتى وإن لم يتحقق.

صورة أتمنى لو أحرقتها، وأخذت رمادها، ورسمت به وجهًا حزينًا.

فتشوا عن الحقيقة في أنفسكم، ثم اصرخوا بها،
ولا تصرخوا ما لم تفتشوا،
فلا تكونوا كالحمار يحمل أسفارًا.

الباب الثاني
السياسة

الفصل الأول

انبثاق السياسة(1-1)

إذا كان لدينا طفل يبكي للحصول على سكين حادة للعب بها، سيتركنا أمام خيارين: إما أن نعطيه ما يريد حتى يسكت، أو لا نعطيه ما يريد ليبكي بشدة، الخيار الأول سيؤذيه إذا لم يقتله، والخيار الثاني أيضًا سيؤذيه إذا لم يقتله.
ولحل مثل هذه المشكلة نستخدم السياسة، سنقوم بإعطائه بديلاً آخر لإسكاته وحمايته.
السياسة تتعلق بالتوازن بين تلبية رغبات الأفراد والحفاظ على النظام والسلامة العامة. في هذا المثال مع الطفل استخدمنا الأسس الجوهرية للسياسة:

السلطة والمسؤولية: لديك السلطة لحماية الطفل من الأذى لأنك تعرف ما هو الأفضل له، وهو يجهل ما هو الأفضل له. لذلك ستكون أنت مسؤولًا فطريًا إذا تبين لك أنك أعلم منه، وهو أجهل منك، وجهله هذا مرتبط بالقصور عن تحصيل المعرفة.
التفاوض والإقناع: تحاول إقناع الطفل ببدائل آمنة تجنبًا للأذى. وسبب هذا التفاوض والإقناع الذي يدور مع الطفل، يدور في حدود الجهل والمعرفة، أنت تعرف أن ما تعرفه لا يمكن للطفل أن يعرفه. لذلك فإن من أهم سبل نجاح التفاوضات هي معرفة مدى حاجة المقابل إلى أمر معين.
إدارة النزاعات: تواجه مشكلة (رغبته في السكين) وتحاول حلها بطريقة تُرضي الطرفين دون أن يتسبب ذلك في ضرر. ولا يمكن إدارة هذه النزاعات من دون معرفة السبل اللازمة للتفاوض، المتمثلة بمعرفة الأمر المتنازع عليه والطرف المتفاوض معه لحل ذلك النزاع بالطريقة التي تجنب الطرفين أي ضرر.
الحكمة والتوجيه: تستخدم الحكمة لتوجيه الطفل نحو سلوك آمن دون التصادم أو القمع. وعند امتلاك الحكمة ستجد التوجيه الصحيح لحل أي نزاع مهما كان أينما كان.

هذا يشبه ما يحدث في السياسة على مستويات أكبر، حيث القادة والحكومات يسعون لتحقيق التوازن بين مصالح الأطراف المختلفة مع الحفاظ على السلامة والنظام العام.
ولكن يجب أن أشير إلى نقطة غاية في الأهمية، وهي شرطية المعرفة، لا يمكن أن يحدث أي تصادم بين اثنين يمتلكون من الحكمة ما يكفي. إذا تواجه قائدان في معركة،

فإن هذين القائدين لن يدخل أحدهما في المعركة إذا لم يثبت أن المقابل أحمق جاهل، لأن القائدين الذكيين لا يدخلون في حرب مطلقًا إلا إذا ثبت جهل أحد القائدين.

بداية السياسة

ليست هناك بداية حقيقية موثقة للسياسة، إنما هي مجرد نظريات قد تصورت كيفية البداية فقط. أما ما سأحاول طرحه فليس عين الحقيقة، لكن ربما يكون قريبًا من تلك الحقيقة. لأن الحقيقة لا يمكن الوصول لها بشكل مطلق بملامستها باطراف اصابع الإدراك، انا اعلم ما هي الشمس التي لا ابدأ يومي من دونها، اراها اكثر من اي مخلوق، واشعر بأثرها في كل موجود، ولكن كل يوم استيقظ فيه وارى الشمس اكتشف امرا جديدا حولها، وهذا الاكتشاف مرتبط بمدى زيادة نضجي و نمو فكري، لذلك حينما أتوقف عن اكتشاف أمور جديدة حول الشمس، لا يعني انني قد وصلت الى جوهرها و رايت حقيقتها، إنما وصلت حدي في الكشف.

بدأت السياسة مع بداية نشوء العائلة، وسبب ظهورها في العائلة هو فقط للحفاظ عليها وحمايتها، وتلك الرعاية والحماية ليست من الوحوش والحيوانات، بل هي لحماية العائلة من رغبات أفرادها التي تكون أنانية بطبعها وتجعل ظهر العائلة مكشوفًا لأي هجمة مدمرة. لذلك فإن تلك الرغبات كان لا بد أن توضع لها القيود، وتُجعل العائلة محمية منها.

وحتى ابن سينا عندما أراد شرح السياسة وإيضاح أفكاره عنها، جعل شرحه السياسي على العائلة، وسبب ذلك هو قدرة جميع الأفراد على فهم السياسة من خلال العائلة. ولا أقول إن ابن سينا يعتقد أن أصل السياسة هو العائلة، بل وجد في شرح السياسة في العائلة هو أفضل حل لإيضاح موضوع غاية في التعقيد الفكري.

في العصور القديمة، كانت المجتمعات تتكون من عائلات وعشائر، وكان رب الأسرة أو زعيم العشيرة هو الذي يتحمل المسؤولية عن اتخاذ القرارات المتعلقة بالعائلة أو القبيلة. وقد تطورت هذه البُنى العائلية تدريجيًا لتصبح نظمًا سياسية أكثر تعقيدًا. وهذا الأمر تم اللجوء إليه من قبل المجتمعات حتى يتم تسهيل وحماية الحياة، لذلك فإن أول الأشكال السياسية المنطقية هي الأسرة.

ولم تقف عند ذلك الحد، فقد أصبحت السياسة لا تشمل الأسرة فقط، بل أصبحت تشمل

قبيلة مكوّنة من أكثر من أسرة، لسياسة تلك الجماعة وتوفير البيئة الصحيحة للعيش والرقي.

إن جميع الأديان الموجودة تتفق على أهمية الأسرة كنواة للمجتمع واعتبرتها الأساس الأول لأي شكل من أشكال المجتمعات. لذلك يمكن القول: إذا كان هناك مجتمع ناجح، فهذا يعني أن العائلة قد نجحت، وإذا قلنا إن المجتمع فاشل، فهذا يعني أن العائلة قد فشلت.

وما نراه اليوم في المجتمع من تناقض وتعدد في الألوان الفكرية هو بسبب تعدد الإنتاجات الأسرية، لذلك لا يمكن الحكم على مجتمع بالفشل بشكل كامل.

لا شك أن الدين هو الذي فتح باب السياسة وأعطاها لونها، وتقديس العائلة كان من مبادئ الدين؛ فجميع الأديان بلا استثناء أعطت العائلة قداسة موازية لقداسة الدين. وسبب ذلك هو كون العائلة هي الناقل الحقيقي للدين والحفاظ عليه.

أما السبب الثاني فهو الهدف الجوهري للدين، من خلال تحقيق مجتمع عادل يطمح لعيش حياة عادلة كريمة.

لو ذهبنا إلى اليهودية، سنراها تلعب دورًا محوريًا في ذلك؛ تُعتبر العائلة المكان الذي تنتقل فيه التقاليد والديانة من جيل إلى جيل، وهي مصدر الهوية الثقافية والدينية.

الأسرة في المسيحية تُعتبر كيانًا مقدسًا ونعمة من الله. الزواج يُعطى أهمية كبيرة، ويُنظر إليه على أنه سر مقدس يُوحِّد الزوجين تحت رعاية الله.

في الإسلام، الأسرة هي لبنة أساسية في بناء المجتمع المسلم. تُعتبر العلاقة بين الزوجين عقدًا مقدسًا، وأساسه المودة والرحمة.

وقد وصل الإسلام إلى مرحلة من تقديس الأسرة، باعتبار أن طاعة الوالدين هي طاعة مباشرة وحقيقية لله، وعدم طاعتهما هو معصية لله نفسه.

أما في الهندوسية، فالأسرة ليست فقط إطارًا اجتماعيًا، بل هي مكان مقدس يُحقق فيه الأفراد واجباتهم الروحية. تُعتبر "دارما" أو الواجبات العائلية جزءًا أساسيًا من الالتزامات الفردية.

وكذلك بالنسبة لبقية الأديان البشرية.

رؤية الدين للسياسة(1-2)

الدين هو الجانب الروحي للإنسان، وليس للإنسان غير الإيمان بقيمه حتى تسري في داخله. ولا يمكنك إجبار أحد على أن يفعل فعلًا دينيًا أو ينوي فعله بإتقان ما لم يكن مؤمنًا بما يفعل.

الدين هو استحضار لتلك القيم التي تجعل الفرد يرفع رأسه نحو العدالة وفعل الخير. ولكن هذا الأمر متروك للفرد وحده، إذ لا سلطة لأي إنسان على قلب إنسانٍ آخر. ولهذا تتوعد الأديان المخطئين بالعذاب الإلهي بعد الموت، لأنها تدرك أنها لا تملك السلطة على القلوب.

فالدين يستخدم الترهيب كسياسة معنوية **للمؤمنين به؛** فإن كنت مؤمنًا ستخاف من يوم الوعيد، أما إن لم تكن مؤمنًا، فلن تُجدي هذه السياسة نفعًا.

أما السياسة الوضعية، فإنها تُطبق **بواسطة الناس على الناس،** ليس من خلال إيمانهم بها، بل بإجبارهم عليها. فالسارق إذا قيل له "سيعذبك الله"، ولم يكن مؤمنًا، فسوف يسرق. لكن إن قيل له "ستُسجن إن سرقت"، فإنه غالبًا سيتراجع، لأن العقوبة هنا محسوسة أمامه.

الدين، إذن، لم يُنشئ نظامًا سياسيًا بالمعنى التنظيمي، بل استخدم **سياسة القيم** لتوضيح الصواب من الخطأ في الشأن الاجتماعي، وعلّمنا هذا النظام كي نبني عليه مجتمعًا عادلًا. الدين لم يكن نظامًا سياسيًا، لكنه زوّد البشر **بأدوات الفهم السياسي** لضمان الحريّة والعدالة.

ولو عدنا إلى جميع الأديان، لوجدناها تعتبر حرية التفكير والاختيار أمرًا جوهريًا. فالله في جميع الرسالات لم يُجبر الإنسان على عملٍ بعينه، بل قال له: "افعل هذا، وسيكون جزاؤك كذا. وافعل ذاك، فلك جزاء آخر. واختر ما تراه مناسبًا لك."

وإذا كان هذا هو **الأسلوب الإلهي** في التعامل مع حرية الإنسان، فبأي وجه حق يُقال إن الدين يفرض نفسه على الناس؟ هذه واحدة من **التحريفات البشرية** للقيم الدينية التي تقوم في أصلها على حرية الاختيار والتفكير.

ولهذا، ظن كثيرون أن الدين يُقيد الحريّة الفكرية، بينما الحقيقة أن القيم الدينية الأصيلة تدعو إلى إطلاقها. هذا الظن الخاطئ نشأ من **سوء فهمٍ للدين،** وتراكم هذا الفهم الخاطئ أدّى إلى معضلة في إدراك الحقيقة.

إن الدعوة التي أطرحها هنا دعوة خالصة لإعادة فهم الدين **بشكل علمي، منطقي، ومناسب لعقولنا المتطوّرة.**

لقد حاول الكثير من الحكماء التفريق بين الدين والسياسة، وكذلك حاولتُ أنا، لكني دائمًا أنتهي إلى نتيجة واحدة: **لا يمكن التفريق بينهما**. فربما التفريق بين الأم وطفلها أهون من التفريق بين الدين والسياسة. حتى لو لم تفرض النظام السياسي بشكل مباشر كما اسلفنا، بل اعطت القيم و المثل التي نحتت تمثال السياسة في وسط هذه الساحة(الحياة).

بل أرى أن السياسة هي **الناتج الفخري للدين،** فكيف نقنع أنفسنا بأن هذا الناتج يمكن فصله عن منتجه؟

لكن، ورغم هذا الترابط، يجب أن نُدرك نقطة غفل عنها الكثير: **الدين لا يرتبط بالسياسة بشكلٍ كلّي.**

انقسم الناس إلى فريقين:

فريق قال إن الدين هو السياسة.

وفريق قال إن الدين شيء، والسياسة شيء آخر.

وكلا الرأيين **خاطئان**. فالدين يستخدم سياسة معينة لتنظيم المجتمعات، لكنه لا يُمارس السياسة بمعناها التنفيذي. أي أن الدين يُحدّد الصواب والخطأ، أما السياسة فتهتم بكيفية إدارة هذا الصواب والخطأ.

فإذا قال الدين: "السرقة خطأ"، فليس معنى ذلك أن نقف ساكنين، بل أن نُسَنّ قوانين تحدّ من هذا الفعل. هذا هو **النظام الاجتماعي السياسي الذي يدعو إليه الدين**.

من خلال شرح الدين للقيم الإنسانية، يمكننا استخراج سياسة إنسانية لإدارة الحياة. لم يضع الدين سياسة للدول، بل وضعها البشر من خلال فهمهم للقيم، فإن وافق هذا الفهم القيم الصحيحة، كان صائبًا. وإن خالفها، كان ذلك انحرافًا يصعب تداركه.

الدخول في فهم السياسة يتطلب فهمًا عميقًا للطبيعة البشرية، لأن الإنسان يمارس السياسة في كل موضع. السياسة وسيلة للوصول إلى الأهداف، وكل إنسان يمارسها بطريقته، بحسب فهمه وقيمه.

فعندما أقرأ "الأمير" لميكافيلي، أعلم جيدًا ما هو فهم هذا الشخص ومبادئه. وكلما ازداد غرق الإنسان في تفكيره، اتخذ أسلوبًا سياسيًا خاصًا يعكس شخصيته.

ولنأخذ مثالًا:
مندوب مبيعات لشركة معينة، أول ما يفكر به هو **سياسة الإقناع** لبيع منتجه. هذه السياسة تعتمد على فهمه وذكائه؛ قد يستخدم لغة الجسد، أو نبرة الصوت، أو حتى الإيحاء بالمصداقية.

تخيل أن مندوبًا يبيع البيرة، ويواجه زبونًا مسلمًا. كيف سيُقنعه؟ سيقول له:
"هذه بيرة خالية من الكحول، صناعة إسلامية، بل وتُعالج الأمراض!"

مبارك! لقد تم بيع البيرة. هذه سياسة قائمة على فهم عقلية الزبون، واستغلال قيمه بأسلوب ملتفٍّ مقنع.

وهذا يُظهر لنا كيف أن **الدين غالبًا ما يشكّل سياسة الأفراد**، وفهم الأديان هو بوابة لفهم سياساتهم.

ما من شخصٍ ينهج نهجًا في هذه الحياة، إلا وكان مؤطرًا **بـ**السياسة الحافظة.
طريقة الكلام، والمشي، والملامح التي تُرسم على الوجه، كلّها سياسة متبعة.
ويتشكّل هذا النهج السياسي الفردي من ترتيب الأفكار الخاصة بفهم الفرد لهذه الحياة.

إذا كان شخصٌ يفهم، من خلال أفكاره، أن الحياة عدمية؛ فستكون سياستهُ التعاملية مبنية على هذه الأفكار الفهمية للحياة كما يراها.
ستراه غليظ القلب، سليط اللسان، لا يحبّ الحياة، ويكره رؤية مظاهرها.
هذه السياسة لم تنبثق لدى هذا الفرد من العدم، بل نشأت من أفكاره التي صاغها في سبيل فهمه للحياة.
والكثير من هذه "الطينة الصعبة" موجودون، ووجودهم دليلٌ على أن ما يراه الفرد، يراه بأفكاره لا بالحقيقة ذاتها.

أشرتُ في العديد من المرات إلى أن ما يراه الإنسان من "حقائق"، لا يمكنه فهمه إلا إذا طابقت تلك الحقائق فكره وفهمه.
فإذا لم يكن يتصور، بفكره، أن شخصًا من غير دينه يمكنه أداء عمل بنفس جودة ما يؤديه هو، فإن حقيقة قيام الآخر بذلك لا تنفع حتى يُبصر هذا الشخص أن ما يعتقده خطأ، وأنه لا يرى الحقيقة.

مطابقة الواقع للفكر المُتَبَنّى أمرٌ يصعب تحقيقه، خاصة إذا كانت الأفكار عقلية.
وربما لا يمكن إنكار الحقائق الحسيّة، إلا إذا خالفت ما نراه معقولًا.
فالتمييز بين الأمور الحسية والعقلية عند الأفراد شديد التعقيد، وصعب الفهم.

من يرى في الصحراء سرابًا قد يظنّه ماء، حتى إذا وصل إليه، أدرك أن ما رآه وهمٌ، وأن ما ظنّه حقيقة لم يكن سوى سراب.
نحن هنا أمام نقطتين تكشفان هشاشة الإدراك البشري:
الأولى: أنه يظن سبب رؤيته للسراب هو شدّة عطشه وتعبه.
الثانية: أنه يفسّر ذلك الجهل تفسيرًا خاطئًا، ظانًّا أنه تفسير حقيقي.

لكن السراب لا يحدث بسبب العطش، بل بسبب انكسار الضوء عند مروره في طبقات الهواء المختلفة الكثافة، نتيجةً لاختلاف درجات الحرارة.
ففي يوم حار، ترتفع درجة حرارة سطح الأرض، مما يؤدي إلى تسخين الهواء القريب من الأرض.
فتصبح الطبقات السفلية من الهواء أكثر دفئًا، بينما تبقى الطبقات العلوية أكثر برودة.
وبالتالي، ينكسر الضوء القادم من السماء عند عبوره هذه الطبقات، مكونًا شكلًا يبدو كأنه بركة ماء.

العقل البسيط هو من يفسّر هذه الظاهرة بتفسيرٍ بدائي، على أنها "ماء" ناتج عن "العطش".
وهذا التفسير، رغم بداهته، ناشئ عن غياب الفكرة.
هذا الغياب يضطر العقل لتبني أي نوع من التفسير، حتى لو كان جاهلًا.

لجوء الفرد لتبني أفكارٍ خاطئة لتفسير ما لا يستطيع إدراكه، ناتج عن سياسة تكبّرية تجبره على فهم كل شيء دون بحث أو تدقيق.
وهذه السياسة تقوده للغرق في عالمٍ من الوهم، والجهل، وغياب الحقائق.

سياسة الفرد نابعة من فهمه.
لذلك، فإن سياسة العدمي لا تشبه السياسة الفردية للوجودي، وهكذا بالنسبة لبقية الاتجاهات الفكرية.
ومن ثمّ، فإن وجود سياسة عمومية موحدة للمجتمع أمرٌ مستحيل، إلا إذا وُجد فكر موحَّد يوحّد جميع الأفكار، وهذا مستحيل.

السياسة الوحيدة القابلة للتطبيق على الجميع، هي سياسة الخوف والترهيب.
قد يبدو هذا الطرح مزعجًا، لكن تأمل معي:

إذا أردنا أن نطبّق سياسة دينية – وهي سياسة روحية تعتمد على إيمان الفرد بها – فماذا لو وُجدت أديان متعددة؟
ماذا لو كان هناك أناسٌ غير مؤمنين؟
وماذا لو عصى المؤمن نفسه ربه، وقتل إنسانًا لأنه رآه ثملًا في أحد الأزقة؟
هل ننتظر حتى يموت لنترك العقاب للرب؟
وإذا ما طبّق رجال الدين السياسة بأنفسهم في الواقع، عدنا إلى مشكلة الاضطهاد الديني، التي لا ترغب أي حضارة حية في العودة إليها.

هل نلجأ إذًا إلى النظام السياسي القائم؟
أي نظام؟
فكل فكرٍ له نظامه، وكل فهمٍ له سياسته.
وعليه، فإن هذه المشكلة لا تُحل إلا بتوحيد الفكر، ومن ثم توحيد النظام السياسي، وهو أمرٌ مستحيل، كما أسلفت.

القيمة الحقيقية التي ينبغي للفرد أن يتبعها في سياسته، هي العدالة.
ألا يظلم من يختلف معه في الفكر، وأن يحكم بينه وبين غيره على أساس العدل.
وسياسته العادلة هي الباب نحو مجتمعٍ راقٍ.

إنّ العدالة هي المنقذ الحقيقي للمجتمعات البشرية المتباينة جذريًا.
الأمة التي لا تنهى عن المنكر، ولا تُجاهد من أجل العدالة للجميع، لن تُفلح مطلقًا.

الأمة المفلحة هي أمة العدالة؛
أمةٌ إن رأت باطلًا، تصدت له.
وإن خالفتها فئة في العقيدة، دعت لها بالخير، ولم تظلمها.
سياسة العدالة في سياسة الفرد تصنع منه مصلحًا لا مفسدًا، ومعمّرًا لا مخربًا.

فالمفسدون هم شرّ البشر، وهم السبب في خراب الأرض، وعذاب ناسها ومخلوقاتها.

سياسة الجمع(1-3)

رغم سلوك الفرد سياسة خاصة به نابعة من ترتيب أفكاره في هذه الحياة، وكما قلت سابقًا، فإن المنهج السياسي المتبع بين الأفراد لا يمكن أن يكون متشابهًا، بسبب الاختلاف في الحيثية لكل فرد.

قلنا سابقًا إن القيم التي يتعصب لها الفرد إنما هي قيم يولد وهو معها، لا يتسنى له أن يختارها، بل تختارها المجموعة. الأشخاص الذين يعيشون في الشرق سيرون دائمًا أنهم أفضل وأسمى من الأشخاص الذين يعيشون في الغرب، والعكس صحيح أيضًا. وكل طرف يتصارع مع ما يعتقده الطرف الآخر ويقاتله، ولكن إذا تمعّن العاقل في هذه الصراعات، لن يجدها منطقية أو عقلانية مطلقًا.

دعوني أذكر لكم أحد الصراعات التي تجسد هذه الفكرة. **حرب البسوس** هي واحدة من الحروب القبلية الشهيرة في التراث العربي القديم، واستمرت لأكثر من أربعين عامًا بين قبيلتي **تغلب** و**بكر**. وسبب هذه الحرب هو قتل ناقة. كانت البسوس بنت منقذ، وهي امرأة من بني تميم، ضيفة عند جسّاس بن مرّة من قبيلة بكر. أثناء إقامتها، خرجت ناقة البسوس ترعى في أرض تابعة لقبيلة تغلب. هناك، قام كليب بن ربيعة، زعيم قبيلة تغلب، بقتل الناقة بعد أن تجاوزت الحدود المرسومة بين القبيلتين.

عندما علمت البسوس بمقتل ناقتها، شعرت بالإهانة والغضب، وبدأت في تحريض ابن أخيها، جسّاس بن مرّة، للانتقام لكرامتها. هذا التحريض دفع جسّاس لقتل كليب بن ربيعة، مما أدى إلى اندلاع النزاع بين القبيلتين، حيث اعتبرت تغلب قتل زعيمها إهانة كبيرة تتطلب الانتقام.

أربعون عامًا يقتل الطرفان بعضهما بسبب ناقة أكلت في أرض غير أرض أصحابها. الناقة التي قُتلت ستشعر بالأسف على بني البشر الذين قتلوا بعضهم بحجّة ناقة! أنتم، كعقلاء، هل ستصدقون أن هذه الأربعين عامًا حدثت بسبب ناقة ستُشوى في يوم من الأيام أو تموت؟ هذا الكلام لن يشتريه إلا الجهلاء.

هذه الحرب تعكس بوضوح أهمية الشرف والكرامة في النظم السياسية التقليدية، حيث إن الانتهاك الصغير قد يؤدي إلى تصعيد كبير وطويل الأمد. ويمكن هنا استكشاف فكرة كيف أن الحروب الصغيرة تبدأ بسبب أحداث تبدو بسيطة، ولكنها تتضخم نتيجة لعدم وجود وسائل فعالة لحل النزاعات سلمياً في المجتمعات القبلية.

سبب بسيط مثل الناقة قد يبدو غير مقنع، لكن بالنسبة لهم، هذا أمر سيُضخّم. إذا أتيتَ لشخص يجلس في أحد المقاهي وأوقعتَ كوبه على الأرض فانكسر، لن تحدث مشكلة. أما إذا كان هذا الشخص لديه نقاط معينة لا يمكن المساس بها، مثل الكرامة، وإذا تبين له أنك أهنته، سينشب عراك في ذلك المقهى.

في المجتمع القبلي، الشرف والكرامة هما القيم الأساسية التي تحدد مكانة الفرد والقبيلة. **فريدريك نيتشه** كان له اهتمام خاص بفكرة الشرف والكرامة في المجتمعات الأرستقراطية المبكرة، مثل المجتمعات القبلية. وفقًا لنيتشه، كان الناس في تلك المجتمعات يتصرفون وفقًا لقيم **"الأخلاق الأرستقراطية"** التي تركز على الكبرياء، القوة، والشرف الشخصي.

في حرب البسوس، يمكن أن نرى انعكاسًا لهذه الأخلاق، حيث إن الصراع لم يبدأ فقط من مقتل الناقة، بل من إحساس بالعار والإهانة الشخصية الذي تعرض له جسّاس والبسوس. الشرف هنا ليس مجرد قيمة شخصية، بل هو نظام اجتماعي يُحدد العلاقات بين الأفراد والقبائل. يمكن القول إن الحرب لم تكن فقط بسبب ناقة، بل كانت وسيلة للحفاظ على الشرف القبلي والسلطة التي تعتمد على الاحترام والخوف.

لو اطّلعنا على القصة مرارًا وتكرارًا، سنجد أن المشكلة وقعت بين شخصين: جسّاس والبسوس. لكن، ما الذي جعل كلا القبيلتين متورطتين في نزاع بين شخصين؟ لا أريد الخوض في الحرب أكثر لفهم أبعادها السياسية بشكل كامل، لكن الحقيقة هي أن **سياسة الجمع** هي التي تتدخل في سياسة الفرد. السياسة الفردية التي امتلكها جسّاس والبسوس تمتلك بعض النقاط التي يعتبرها جميع أفراد العشيرة قيمًا جمعية تشمل كل الأفراد، لأنها تربطهم مع بعض.

الكثير من الأنظمة السياسية تشمل أفرادًا مختلفين، لكن هؤلاء الأشخاص المختلفين تربطهم بعض القيم التي هي أساس ذلك النظام السياسي. ليس هناك ارتباط بين روسيا والصين من الناحية الشكلية أو اللغوية أو الجغرافية، لكن هذين البلدين يؤمنان بنظام سياسي واحد، وهو النظام الشيوعي، ويصرخ كلاهما بنفس المطرقة والمنجل.

لكن عند تفحص سبل التشابه بين الثقافتين والروابط، سنجد أن القيم الشيوعية هي الرابط الحقيقي، بينما القيم الفردية لا ترتبط بنفس الترابط القوي الذي يرتبط به الجمع.

لكن مشكلة هذه الروابط المحددة ستكون عائقًا في المراحل المهمة. البشر تربطهم الكثير من الروابط، ولكن كلما قلت هذه الروابط، ازداد العداء والبعد بين الاثنين، إلى أن يصل الأمر إلى مرحلة تكون فيها الروابط معدومة، ليأكل الإنسان إنسانًا آخر.

من المثير للاهتمام كيفية اختيار البشر للزوج؛ يبحث عن بعض النقاط التي يرغبها في شريكه، وهذه النقاط تُحدد بناءً على كثرتها في الشخص المقابل. المقصود: كلما كانت نقاط الترابط بين فردين أكثر، كان الفصل بينهما أكثر صعوبة. دعوني أسمّي هذه الحالة: **"الجذب البشري."**

الفصل الثاني

الإرادة والحرية(2-1)

القوة والفعل(2-1-1)

القوة هي القدرة الكامنة أو الاستعداد الذي تمتلكه الكائنات أو الموجودات لإحداث تغيير أو تحقيق فعل معين. يمكن أن تكون هذه القوة طبيعية، نفسية، أو ميتافيزيقية، وتظهر من خلال الانتقال من حالة الإمكان (القوة الكامنة) إلى حالة الفعل (التحقق).
القوة، بهذا المعنى، هي الاستعداد أو الإمكانية في الأشياء لتفعيل صفاتها أو خصائصها تحت ظروف معينة.

هذه القوة موجودة بشكل كامن في كل المواد، ولكن وجودها في تلك المواد غير فعّال، أي أن وجودها يحتاج إلى محفّز معين، خارجيّ أو غيره. فوجودها مرتبط بتأثير موجودٍ آخر له قوة محفّزة تُفعّل تلك القوة وتُخرجها إلى حالة الفعل أو التحقق.

أي قوة موجودة كامنًا داخل مادة ما، لا يمكن اعتبارها "موجودة واقعيًا" إن لم تصبح فعلاً. وشرط حصول هذا الفعل هو بفعل قوة أخرى محفّزة. أما إن لم تُفعّل، فوجودها يكون وهماً أو جهلاً بالقوة.
ووجود القوة كامنة في المادة لا يتحقق بالفعل إلا إذا اتحدت تلك القوة مع الصورة، حتى تصبح فعلاً.

> "إن المادة لا تتحقق بالفعل إلا بالاتحاد مع الصورة، فالمادة تحمل في ذاتها قوة وإمكانية، لكن هذه الإمكانية لا تتحقق إلا عند اتحاد المادة بالصورة التي تُخرج هذه القوة إلى الفعل."

هذا القول لأبن سينا أقرب إلى حقيقة المادة. ولو أخذنا هذه الفكرة وذهبنا بها إلى دالة الموجة في الحالة الكمية، سنرى أن هذه المادة يمكن أن تكون كل الاحتمالات، قبل أن تنهار دالة الموجة وتتحد بصورة معينة.

يمكن التعبير عن هذه الحالة بدقة من خلال القول إن المادة تتخذ صورة معينة بعد أن تنهار دالة الموجة (Wave Function Collapse). وهذه الحالة الكمية، التي تُسمى بـ"التراكب الكمّي" (Quantum Superposition)، هي حالة لا تكون بها المادة موجودة واقعيًا، إلا إذا انهارت دالة الموجة وأصبحت للمادة صورة واقعية.

حقيقة القوة تبقى غير معروفة ما لم تصبح صورة واقعية. وليس هناك فعل ما دامت القوة غير فعّالة.
فالإنسان يمتلك قوة لضرب إنسان آخر، لكن لا يمكن القول بوجود تلك القوة ما دامت لم تصبح صورة واقعية للضرب.

نيوتن له قانون يوضح هذه النقطة بشكل بسيط جدًا:

"لكل فعل رد فعل، معاكس له في الاتجاه، ومساوٍ له في القوة."

أي أن رد الفعل يحصل بسبب امتلاك المادة لقوة كامنة، تصبح فعلاً كردّ فعل لفعلٍ آخر يساويها في القوة.

وجود الفعل مرهون بتحفيز أو انفعال تلك القوة المُكوّنة للفعل.
فالإنسان يمتلك قوة شهوانية، ولكن هذه القوة لا يمكن أن تتحقق دون وجود محفّز لها.

مثال بسيط لتحفيزها: مشاهدة الأفلام الإباحية لن تُحفّز سوى القوة الشهوانية.
هل رأيت يومًا شخصًا تحفّزت لديه القوة العقلية أثناء مشاهدته للأفلام الإباحية؟

كل قوة لها محفزها الخاص، وقد تشترك مع محفزات تُحفّز قوى أخرى، لكن بشرط ألّا تتناقض تلك المحفزات مع القوة الأخرى.

لنبقَ في هذه القوة لنوضح أمرًا غاية في الأهمية، وهو **الغاية**.
هذا الشخص الذي حفّز القوة الشهوانية لديه، كان يمتلك غاية لتحفيز تلك الشهوة. ولا أقول إن هذه الغاية كانت دائمة، إنما هي غاية يطلبها في لحظة التفكير فيها.

ووجود الغاية غير كافٍ، مما اضطره للتفكير في وسيلة لتحقيق تلك الغاية، التي ستحفّز قوته الشهوانية، من خلال مشاهدة الأفلام الإباحية.

القوة تسبق الفعل كما شرحنا، لكن...
هذا الفعل: كيف يكون موجودًا من غير فعل؟
بمعنى: إذا كانت القوة لا توجد إلا بفعل، فكيف وُجد ذلك الفعل الأول؟

السبب يعود إلى أن ذلك الفعل، أيضًا، كان قوة كامنة، حفّزها فعل آخر، كانت له قوة كامنة أيضًا، وهكذا دواليك، حتى نصل إلى الفعل الأول الذي لا يحتاج إلى فعل آخر ليُحفّزه.
ولولا وجود هذا الفعل الأول، لما كان هناك فعل مطلقًا. ولكن هل الفاعل الأول امتلك

قوة كامنة لم تتحرر حتى تصبح فعلا؟ واذا كان الامر كذلك حينها سنوضع في زاوية مقيتة تفرض علينا تجعل من القوة الاولى غاية في التعقيد و الحيرة.

اذا لم اجد ما ياخذني للسماء، ويجعلني ارى ماهو تحتها، من حقائق و اكذوبات، فسابقى في هذا الجهل حتى تتعفن كل خلايا الدماغ.

كل مادة تحتوي على قوة معينة لا يمكن التنبؤ بحجمها. ولكن عندما تتخذ هذه المادة صورة معينة، فإن هذه القوة تُحدد من قبل النظام الواقعي (الطبيعة).
لذلك، فإن الصخرة لن تمتلك القوة الواقعية لفعل الحركة، بسبب الصورة التي هي عليها في الواقع.

كل الكائنات الموجودة في الواقع هي موجودة بالفعل، وهذا الوجود مسبوق بوجودها بالقوة.
أي لا يمكن القول بالوجود بالفعل دون القول بالوجود بالقوة، لأن الفعل مسبوق بالقوة.

فالشجرة موجودة بالقوة داخل البذرة، لكنها غير موجودة بالفعل (أي لم تصبح شجرة بعد).
بينما نقول إن الشجرة موجودة بالفعل إذا كانت الشجرة حاضرة.
ولا يوجد موجود بالفعل دون قوة وجود. وحتى الفاعل الأول، له قوة وجود.

فهم مبدأ القوة هو المفتاح لفهم السياسة بشكل عميق وجميل.
كلما امتلك الشخص المزيد من القوة، امتلك بجانبها المزيد من السياسة.
ولا يمكن أن يمتلك شخص قوة دون امتلاك سياسة موازية لتلك القوة.
ويمكن التعبير عن هذه العلاقة بالقول إنها **علاقة طردية**:

كلما زادت القوة، زادت السياسة.
وكلما قلت القوة، قلت السياسة.

نوع السياسة مرتبط بنوع القوة، وبالاتجاه الذي تتجه به هذه القوة.
إذا كانت القوة متجهة نحو الشر، ستكون السياسة متجهة بنفس ذلك الاتجاه.
بالمعنى أن السياسة تحضر بحضور القوة، وتغيب بغيابها.
النهار موجود عند حضور الشمس.

القوة الحقيقية التي تفرد بها الإنسان على سائر الموجودات هي **قوة فعل الخير**،
لأن هذه القوة تحتاج إلى فاعل خير حتى تكون بصورتها الوجودية.
وهذه القوة هي **المصدر الحقيقي** لباقي القوى الموجودة.

هل كنت تظن أنني سأقول إن القوة الحقيقية للإنسان هي "التفكير"؟
ما نفع التفكير إذا كان الشخص المفكر فاشلاً؟
ما نفع التفكير إذا كان الشخص أنانيًا؟
ما نفع التفكير إذا كان المفكر شخصًا يحب اللهو؟
التفكير يكون قوة فعالة وحسنة فقط عندما يكون نابعًا من **فاعل خير**.
كونوا فاعلي خير، حتى تحصلوا من القوة ما ألذها.

للإنسان قوى كامنة لا يستطيع الوصول إليها حتى يجعلها موجودة بالفعل.
وهذه القوى هي **العجب الحقيقي للوجود**.
ولكن من الصعب أن يجعلها الإنسان فعلاً واقعيًا.
ولا أقول بالاستحالة، لكني أقول بالعجز عنها: العجز عن معرفتها، إدراكها، والوصول إليها.

من غابت عنه الشمس في أعماق كهفه، ما عرف كيف يبدو النور.

ويبدو أن للقوة أسرارًا وخفايا نجهلها، بسبب الجهل المؤلم الذي أوقعنا أنفسنا فيه.

القوة التي أتحدث عنها هي **القوة المطلقة**، التي لها القدرة بالفعل على خلق وتكوين هذا العالم بشكل كامل.
ولكي يستمر كمالها، جعلت الموجودات تمتلك قوة الإيجاد.
فالآب والأم يمتلكان القوة لخلق بشر،
وكذلك بقية الموجودات، لا يمكن أن تُوجَد أو تُوجِد من دون امتلاكها تلك القوة،
التي تحصّلت عليها من **القوة الموجِدة** التي أوجدتها... وهكذا دواليك، حتى نصل إلى **القوة المطلقة**، التي هي **مصدر جميع القوى**.

سياسة الدول تعتمد على القوة في تطبيق سياستها.
ولا يمكن تطبيق أي سياسة تابعة لمنهجٍ أو اتجاهٍ فلسفي لا يعتبر القوة كمصدر رئيسي لتطبيقه.

ومن أمثال هذه المناهج الفلسفية هي **البراغماتية**، التي تعتقد بضرورة إنهاء الدول وجعل البشر يحكمون بعضهم وفق الضمير.
وهذه من أسخف النظرات التي عرفتها، لأنها تدل على عدم فهم للجنس البشري.
ومن خرج لنا من الحكماء بمثل هذه الفكرة، لم يكونوا على دراية وفهم بالبشر.

الدول، سواء كانت حالية أو سابقة، كانت تزدهر وتتطور بسبب وجود قوة كبيرة في جانبها، تدعم المنهج السياسي المتبع وتحافظ عليه.

والدول الحالية تتصارع في سباق سريع على امتلاك **قوة أعظم من الآخر**، للهيمنة والراحة في تطبيق منهجها السياسي.

سألني أحد الأشخاص:

هل ستحصل حرب نووية في المستقبل؟
نظرت إليه بغرابة، وقلت له:
لماذا تعتقد أنها ستحصل؟
قال:
العالم كله، منذ اختراع القنابل الذرية، يتساءل متى ستندلع الحرب النووية.

باختصار، هذه الحرب **لن تحصل مطلقًا**.

دعونا نحلل المسألة أولاً:

أتدرون لماذا هناك "قوة ردع نووية"؟
نعم، **قوة**.
هذه القوة مساوية للقوة المقابلة، أو متفاوتة بشكل طفيف.
وما دامت هذه القوة مساوية للقوة المقابلة، فمن **المستحيل** أن يحصل هجوم بها على الأخرى.

لكن، ماذا لو أصبحت إحدى تلك القوتين ضعيفة؟
هل ستنسف القوة المقابلة تلك القوة؟

الجواب أيضًا: **لا**.
لأنهم يعتقدون أن العالم أصبح ملكهم، ولم يعد مقسمًا.
فهم سيعتبرون أنفسهم قد امتلكوا النصف الآخر،
وإذا امتلكوه، **مستحيل** أن يدمّروه.

هذه المسألة هي التي جعلت العالم يمر بـ"حرب باردة"،
دون المرور بـ"حرب ساخنة" تحرق الأخضر واليابس.

السياسة قبل سقوط الاتحاد السوفيتي كانت هكذا،
والسياسة الحالية أيضًا كذلك.

متى ما امتلك النظام السياسي **القوة الحقيقية**، ازدهر.
لأن البشر ليس بطبعهم أن يكونوا في سلام، آمنين من شر بعضهم على بعض.

والطامة الكبرى:
من يمتلك **قوة كبرى**، لن يأمن من شره **الضعيف**.

لأن المسألة كانت دائمًا أن القوة مصحوبة بالشر.

وهذه هي **المعضلة السياسية** التي لن تحلّها الأنظمة السياسية الموجودة الآن.

الحرية(2-1-2)

موضوع **الحرية** هو من أكثر المواضيع إبهامًا وغرابة.
تارة تظن أنه لا وجود لها، وتارة تراها هي **هدف الحياة**.

وهذه المشكلة ناتجة بسبب تعدد أفهام المفكرين والحكماء الذين عرّفوا الحرية بتعريفات مختلفة، بل أصبح كل اتجاه فكري يضم مجموعة من الحكماء يكون لهم تعريف خاص للحرية، حتى إنه لا يمكن التمييز بين الاتجاهات الفكرية أحيانًا بسبب تقارب أفكارهم، إلا من خلال تعريفهم لمفهوم الحرية.

الوجودية تعتبر الحرية **جوهر الوجود الإنساني**.
ينظر فلاسفة مثل جان بول سارتر إلى الحرية كقدرة الفرد على **اختيار مصيره**، مؤكدين على المسؤولية المرتبطة بهذه الاختيارات.

يعتقدون أن الإنسان **"محكوم عليه أن يكون حرًا"**، مما يعني أن الحرية تفرض أعباءً أخلاقية.
وهذا الاعتقاد يولد إشكالات **لا تستطيع الوجودية حلها**.

في الفلسفة العدمية، يُنظر إلى الحرية بشكل مختلف عن المدارس الأخرى.
العدمية تعبر عن الشك في وجود قيم ومعانٍ موضوعية، مما يترك الأفراد في **حالة من اللامعنى**.

بالنسبة للعدميين، مثل فريدريك نيتشه، يمكن أن تكون الحرية تجربة **مؤلمة**، إذ يواجه الأفراد **غياب الهدف أو الغرض** في الحياة.

في ظل هذه الرؤية، يُعتبر الفرد حرًا في خلق معناه الخاص وتحديد مصيره، لكن هذه الحرية تأتي مع عبء **عدم اليقين** و**الفراغ الوجودي**.
بالتالي، ترى العدمية أن الحرية ليست فقط قدرة على الاختيار، بل هي أيضًا **مواجهة للفراغ الفكري والعاطفي**.

توجّه الفلسفة الوجودية **مفهومًا مختلفًا تمامًا** عن الفلسفة العدمية.
وهذا دليل قاطع على أن **تعريف الحرية مرتبط ارتباطًا كاملًا بالاتجاه الفكري**.

ولن أحاول أن أنتقد تعريف مفهوم الحرية في الاتجاهات الفكرية، لأن هذا إضاعة للوقت،
أي أنني سأخوض نقدًا كاملًا للاتجاه الفكري حتى أصل إلى مفهوم الحرية الذي سينهار بعد انهيار الاتجاه نفسه.
لذلك لن أقوم بهذا الأمر وسأرى بنفسي، بعيدًا عن التوجه الفكري.

معشر البشر الذين خلقوا مفهومًا للحرية مفاده أن "الإنسان الحر هو الإنسان الذي يفعل ما يريد"،
هذا من **أكثر الأخطاء حماقة وانتشارًا**.

كيف يكون الشخص العاجز في نقطةٍ ما حرًّا فيها؟
هذا من نسيج الوهم الذي يكون فيه الإنسان **مطلق الحرية في التخيل،**
وحتى تلك الحرية تعمل وفق المعطيات التي امتلكها خلال حياته.

الحرية الكبيرة التي امتلكها الإنسان في الخيال والوهم **هي التي عرّفت مفهوم الحرية في الواقع،**
وهذا التعريف غير واقعي لأنه **استُنتج من خيال لا واقع له**.
وهذا الخيال يختلف من فكر لآخر، **يتأرجح بوهم ذلك الفكر وواقعه**.

الحقيقة هي أن الحرية التي اعتقدنا أننا نمتلكها — حرية التفكير — ليست حرية مطلقة.
فبعد التعمق والتأمل، وجدت أننا **لسنا أحرارًا فيما نفكر،**
بل نفكر **وفقًا لقيود معرفتنا** وحدودها المحددة بالبيئة التي نعيشها.

هل سيشعر السجين بالحرية إذا أُطلق سراحه من السجن؟
أم فكرة أنه لم يكن حرًا في السجن كانت **فكرة وهمية** نصبها العالم له؟

الإنسان بطبيعته الروحية **حر،**
لكن هذه الحرية فُرضت عليها **قيود**:

قيود مادية مثل الجسد المادي.

قيود فكرية مثل المعرفة المحددة التي نمتلكها.

قيود نفسية متمثلة بانجرار الإنسان نحو رغباته النفسية.

كل هذه القيود تشير إلى أن الإنسان **ليس حرًّا**.

لكن يمكن للإنسان أن **يكسر هذه القيود**.
متى؟
عندما تحدث لديه **يقظة من نومه الطويل**.

حينها، **تفيق الحرية الروحية** التي يمتلكها،
وتؤثر على فكره وقراراته،
وتحوّل كل أفعاله التي ستحدد **إنتاجه في الحياة**.

أفهم أن الجميع يمتلك هذه الحرية،
لكن لا يستطيع الوصول إليها.

كان في زمن **الاستعباد البشري** — الذي لم ينتهِ منذ زمن طويل —
أن السيد وعائلته كانوا محاطين بجيش من العبيد.
لكن هذا الجيش **لا يتمرد لأجل حريته** مطلقًا.

وما يثير دهشتي أن من قام بثورة تحرير العبيد هم **السادة البيض أنفسهم،**
لم يحرروا أنفسهم بأنفسهم، بل احتاجوا إلى شخص أبيض يأمرهم **كيف يتحررون!**

لذلك، لن ترى الأحرار أحرارًا **إلا بأنفسهم**.
وظلام الليل لن يخفي مطامحهم،
لأنهم **عرفوا حقيقة ذواتهم**:
أن هذه الأغلال التي غُلوا بها **لن تمنعهم عن حرية كانوا بقربها**.

وثورة الإنسان لأجل حريته **ملحمة خالدة،**
تحرره من الأجسام البالدة.

يُصدّر الآن إلى جميع بقاع العالم **مفاهيم غير واضحة للحرية،**
وهذا التصدير خلق **إرباكًا وتشكيكًا** بكل القيم التي صاغها الإنسان منذ القدم.

وتزداد الحرية تعقيدًا **كلما تقدمنا إلى الأمام،**
وجميع الأفكار التي تصرخ من أجل الحرية **أربكت الفكر البشري،**
وجعلته قابلاً للتغير والتشكيل **وفق الأهواء**.

هذا الفهم الخاطئ لمفهوم الحرية وَلّد **فهمًا خاطئًا للأفكار المتبعة**.
ومن أكثر هذه الإرباكات التي نواجهها الآن **إرباك النوع الجنسي**.

قبل أن تصبح الحرية غير محدودة،
لم يكن البشر يستطيعون أن يقولوا إن هناك **أكثر من نوعين للجنس البشري**.
لكن بعد أن تمكنت **قوى الظلال** من السيطرة على العقل البشري،
و**الحطّ من قدره وقيمته** وزيادة جهله،
ضربوا المسلّمات وفتحوا باب الإرباك والإيهام.

التجميع العشوائي و**البناء غير المدروس،**
كل ما هو خاطئ يكون أساسًا لأفعال معينة،
وسيتولد عن هذا تراكمٌ للخطأ، وهذا التراكم سيولد **مشاكل كبيرة يصعب حلها**.

تخيل أنك تريد بناء بيت:
نعم، أنت حر في بناء بيتك.
لكن هل من العقل أن تبنيه بنفسك دون أن تكون مختصًا؟

ستبني بيتًا **سينهار عليك يومًا ما**.
وهكذا، فإن تحديد القيم والقواعد الأخلاقية ـــ التي تمثل **الأساس البشري** ـــ
لا يمكن أن يُحدد من قبل الجميع.

لأن **الفهم الخاطئ لمفهوم معين** سيؤدي إلى **مصداق خاطئ**.
حينها، سيكون الإنسان في **سعيرٍ داخلي،**
ولن تكون للحياة **إلا لذة واحدة**:
لذة الألم.

كل صوت يصدح في **الحرية العشوائية،**
هو صوت في الأمور **اللاعقلانية**.

ومن أراد يومًا أن يعيش الحياة **بوهمه،**
عاش أيامًا فانية،
بلذة ألم باقية.

لذلك، **هبّوا إلى أنفسكم وأنقذوها** من أساسات بالية،
وصعدوا إلى السماء ولامسوا نجومها،
عسى أن تكونوا فيها **نجومًا ساطعة**.

الإرادة(2-1-3)

أريد أن أحلق في السماء وتلامس الرياح وجهي لتبني فوقه قصورًا من الارتياح.
لكن هذا مستحيل الحدوث بطبعه، فلا يمكن للإنسان أن يحلق في السماء لمجرد امتلاكه لتلك الإرادة.
ولكن إذا استمر بتلك الإرادة، وحاول جعلها واقعًا، فإنه سيحقق ذلك من خلال اكتشافه للواسطة التي ستمكنه من ذلك... طائرة ربما، أو حقيبة نفاثة.

الكائن الوحيد الذي، إذا وُجدت عنده إرادة لا يمكن تحقيقها بسبب قصور قوته المادية، فإنه سيلجأ إلى إيجاد تلك القوة خارجه، حتى يجعل من إرادته فعلاً مفعولًا.

أما بقية الكائنات الحية، فإنها لا تريد ما لا تعلم، وما تريده تعلمه بحدود علمها.
وهي تصل إلى إرادة مفاجئة فقط في حالة الحاجة (الانتخاب الطبيعي).

لفهم الإرادة أكثر، يجب علينا أن نفهم هذا الإشكال:
هل الإرادة منفصلة، أم أنها جزء من الرغبة النفسية؟

ينقسم الحكماء إلى قسمين في هذا الإشكال:

فريق يؤيد أنها منفصلة.

وفريق يرى أنها جزء من الرغبة النفسية.

ومن الزاوية التي ينظرون بها للحقيقة، يعتبر كل فريق ما يراه هو الحقيقة.

الكثير من الحكماء ذهبوا إلى القول بأن الإرادة هي أمر أعلى من فهمنا وإدراكنا، وهي المحرك الحقيقي لنا.

يرى ديكارت أن الإرادة والعقل منفصلان، وأن الإرادة أوسع من الفهم، حيث يمكن لها أن تتجاوز حدود المعرفة وتختار حتى في غياب اليقين.
وقد قال:

"إن الإرادة هي أعظم الأشياء فينا، وهي التي تسمح لنا بالحرية في الاختيار، وتفوق بذلك قدراتنا المعرفية."

لكن، أشعر وكأن ديكارت كان يجهل مصدر هذه الإرادة العظيمة التي لا بد أن تكون نابعة من منبع يفوقها عظمة، واكتفى بالحيرة فيها فقط.

يؤمن كانط بأن الإرادة هي المبدأ الأخلاقي، الذي يجب أن يكون منفصلًا عن الرغبات والعواطف لتحقيق الأخلاق الحقيقية.
فبالنسبة له، الإرادة الأخلاقية تُشكل وتُوجّه عن طريق العقل العملي، مما يجعلها مستقلة عن الرغبات الحسية.

قال:

"الإرادة الحرة والمستقلة هي التي تطيع العقل فقط، وتتحرر من كل تأثيرات الطبيعة، كي تتبع المبادئ الأخلاقية."

نعم، كانط كان مؤمنًا بأن الإرادة منفصلة عن الرغبة النفسية، لكنها ليست منفصلة بذاتها، بل هي مرتبطة بالعقل ومطيعة له.
ولكن... هذا العقل، كيف يكون تابعًا لمثل هذه القوى؟

العقل مجرد أداة تستخدمها النفس للوصول إلى بعض الأمور التي تدفعها الإرادة.

فإذا فكر شخص في شهوة جنسية، هل هذا يعني أن العقل هو من دفعه وحرك الإرادة نحو هذا التفكير؟
لا يمكن للعقل أن يفكر بما يريد، بل إن العقل تابع للاتجاه النفسي ويعمل في الاتجاه الذي تسلكه النفس فقط.

إذا كانت نفس الشخص مليئة بالقبح والرذائل، فإن العقل سيكون موجَّهًا في هذا الاتجاه.

من هنا نستنتج أن العقل ليست له إرادة معينة، بل هو أداة يستخدمها الإنسان للوصول إلى رغباته بشكل أفضل.

الكمبيوتر أداة عظيمة لا شك في ذلك، وتمتلك من الميزات ما يجعلها من أفضل الأدوات التي صنعها البشر.
لكن هل استخدام هذه الأداة هو نفسه عند جميع البشر؟
حتماً لا.

إذا كان هذا الكمبيوتر بيد شخص نفسه ترغب في مشاهدة الأفلام الإباحية، فهذا لا يعني أن الكمبيوتر فرض عليه ذلك.

وإذا كان بيد شخصٍ آخر يرغب بالعلم والمعرفة، فإن الكمبيوتر سيساعده على الوصول لها.

ولكن لا يمكن القول إن الكمبيوتر هو من دفعه إلى المعرفة.

يرى شوبنهاور أن الإرادة قوة مستقلة تمامًا، قائمة بذاتها، وتتحكم في كل شيء، حتى في العقل.
يقول في كتابه "العالم كإرادة وتمثل":

"الإرادة هي القوة الأساسية في الحياة، وهي ليست عقلانية، بل هي شيء يتجاوز العقل ويتحكم فيه."

شوبنهاور كان يعتقد بأن الإرادة منفصلة بالكامل، وعلى عكس كانط، اعتبر العقل أداة تابعة للإرادة.

لكن شوبنهاور ومن معه أخطأوا في اعتبار الإرادة هي "القوة".
لا يمكن اعتبار الإرادة قوة؛ فكما أسلفتُ، الإرادة من دون قوة لا يمكن أن تكون مفعولة.

فإذا أراد المريض أن يمشي، لكن لا يمتلك القوة، فإن إرادته وحدها لن تجعله يمشي.

ليس هناك شيء اسمه إرادة حرة.
كل هؤلاء الحكماء توهّموا ذلك بسبب قصورهم عن إدراك الأحداث وتشكلها.

عندما تظن أنك تمتلك إرادة حرة للعب كرة القدم، فإنك مخطئ.
هذه الإرادة قد تم فرضها عليك، ولم تكن حرًا سوى في قبولها أو رفضها.
وكلما كان الإقناع أكبر، كان الاختيار أوضح.
وهذا يعني أن الإرادة تم فرضها عليك.

عندما تفتش في حقائب النساء، ستجدها مليئة بأدوات التجميل المختلفة.

لكن لماذا نجد نفس الأدوات تقريبًا في جميع تلك الحقائب؟
هل لهن إرادة حرة متشابهة؟
حتماً لا.

لقد تم تحديد ما يشترينه مسبقًا من قبل شركات الإنتاج والتسويق.
يشترين ما تقنعهن به تلك الشركات.
وليس لهن اختيار إلا في الألوان، والتي غالبًا ما تكون محددة أيضًا.

عملية التسويق عملية سياسية محكمة، تحتاج إلى خطط جبارة.

سترى المندوب يتملّق ويحاول تحفيز المشتري الذي لا اهتمام لديه.

الهدف: أن يجعله يمتلك ما يريد منه المندوب.

هذه الإرادة ليست إرادة حرة اختارها المندوب، بل إرادة الشركة التي يعمل لصالحها.
وهذه الشركة نفسها، ليست إرادتها نابعة من حرية، بل هي إرادة مفروضة أيضًا.

كل هذه الإرادات المرتبطة بعضها ببعض تنفي نفياً قاطعًا حرية الإرادة.

الإنسان تتكوّن لديه الإرادة عندما تبتغي النفس غاية معينة.
أي أن **النفس هي مصدر الغاية لدى الإنسان ونبعها.**

إذا أراد شخص أن يمارس الجنس، فإن النفس الراغبة هي من ولدت هذه الإرادة.

إذا أراد أن يأكل، فالنفس الشهوانية هي التي رغبت بذلك.

ولا يمكن اعتبار الإرادة قوة خفية غامضة، فقط لأننا نجهل أسباب الرغبة.

الرغبة ليست سرًا خفيًا، بل لها أسباب واضحة.

النفس تدفع الإنسان إلى إرادة الأكل لأنها موجودة في جسد يحتاج إلى الطعام.

الحواس تُفعّل هذه الرغبة، فتتحول إلى إرادة.

أنا أشتهي البيتزا لأني رأيتها، وشممتها، وتذوّقتها.
تفاعل الحواس معها ولّد رغبة، التي بدورها تحولت إلى إرادة.

اليوم تطبَّق هذه السياسة عبر أجندات مريضة ترغّب النفس بالشذوذ.
وعندما يكتمل الترغيب النفسي لهذا الشذوذ ويتحول إلى إرادة، يقولون إنها "رغبة فطرية".

لكن لو رُغِّب إنسان نفسيًا، وأُشبعت حواسه على قتل البشر بطريقة وحشية...
هل ستكون هذه الرغبة "فطرية" أيضًا؟ لا، بل سيقولون إنها مخالفة للفطرة السليمة!

النفس تمتلك إرادة الاتجاه الذي تسلكه فقط.
وإذا امتلكت إرادة مخالفة لذلك الاتجاه، فهذا يعني أنها **تغيّرت نفسيًا**، وهذا ما يُعرف بالهداية.

كل الأنظمة السياسية والفكرية تهدي الناس إلى اتجاهها أولًا.
وهذه الهداية هي أساس تطبيق الأفكار في الواقع.

الشيوعية لم تُطبق إلا بعد هداية الناس إليها.

وكل ما نراه من شذوذ وعبث، ما هو إلا "هداية" إلى النظام الفكري القادم.

ولا أعلم متى يُطبق هذا النظام الجديد، لكنه قريب.
ومن خلال طرق الهداية التي تُستخدم اليوم، أقولها صراحة:

النظام القادم من أسوأ الأنظمة، وسيجعل الجنس البشري على حافة الزوال.

العقد الاجتماعي(2-2)

العقد الاجتماعي هو تصور فلسفي يهدف إلى تفسير نشأة الدولة والسلطة، انطلاقًا من فكرة أن الأفراد كانوا يعيشون في حالة طبيعية (قبل وجود الحكومة)، ثم قرروا، بموجب اتفاق ضمني أو صريح، التخلي عن جزء من حرياتهم الفردية لصالح سلطة حاكمة توفر لهم الأمن والاستقرار.

العقد الاجتماعي: بين الفرضية الفلسفية والنظرية السياسية

تُعد نظرية العقد الاجتماعي من أبرز الإسهامات الفكرية في الفلسفة السياسية الحديثة. وقد شكّلت أساسًا لتطور مفاهيم مثل **الشرعية السياسية**، و**السيادة**، و**حقوق الأفراد**.

ومع ذلك، فإن السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه عند تناول هذه النظرية هو:

هل يمثل العقد الاجتماعي نظرية قائمة على أسس علمية قابلة للاختبار، أم أنه مجرد فرضية فلسفية تستند إلى تأملات عقلية محضة؟

للإجابة على هذا السؤال، ينبغي أولًا الوقوف على الفرق بين مفهومي **النظرية** و**الفرضية** في السياقات الفلسفية والعلمية، ثم تحليل طبيعة العقد الاجتماعي وموقعه بين هذين المفهومين.

أولًا: مفهوم العقد الاجتماعي

يشير مفهوم العقد الاجتماعي إلى تصور فلسفي يسعى إلى تفسير نشأة الدولة والسلطة السياسية، من خلال افتراض وجود "حالة طبيعية" سابقة على المجتمع المنظم. في هذه الحالة، كان الأفراد يعيشون في غياب سلطة حاكمة مركزية، يسيّرهم قانون الغريزة أو مبدأ البقاء.

وبحسب هذا التصور، توصل الأفراد، إما ضمنيًا أو صراحة، إلى **اتفاق مشترك** فيما بينهم، يقضي بالتنازل عن جزء من حرياتهم لصالح سلطة مركزية، مهمتها الأساسية تحقيق الأمن والنظام وضمان الحقوق. ومن هذا الاتفاق، نشأت فكرة **المجتمع السياسي** وظهرت **الدولة**.

وعلى الرغم من أن فكرة العقد الاجتماعي ظهرت بصور متفاوتة عبر مراحل الفكر السياسي، فإن أكثر الصياغات شهرة وتأثيرًا ارتبطت بثلاثة فلاسفة بارزين في الفلسفة السياسية الحديثة:

توماس هوبز: الذي رأى في العقد ضرورة للهروب من حالة الفوضى والخوف في "الحالة الطبيعية"، حيث "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"، فكان لا بد من وجود سلطة مطلقة لضمان الأمن.

جون لوك: الذي اعتبر أن العقد الاجتماعي جاء لحماية **الحقوق الطبيعية** (الحياة، الحرية، والملكية)، وأن الدولة يجب أن تخضع لقيود قانونية ومساءلة.

جان جاك روسو: الذي رأى أن الإرادة العامة هي أساس العقد، وأن على الأفراد أن يتنازلوا عن إرادتهم الفردية لصالح المصلحة العامة، مما يجعل الحرية الحقيقية ممكنة فقط داخل المجتمع السياسي.

ثانيًا: العقد الاجتماعي بين الفرضية والنظرية

الفرق بين الفرضية والنظرية

الفرضية: هي تصور مبدئي أو افتراض عقلي يُطرح بهدف تفسير ظاهرة معينة، دون أن يكون بالضرورة مدعومًا بأدلة تجريبية أو قابلًا للاختبار العلمي. وغالبًا ما تكون خطوة أولى في بناء التفكير النظري.

النظرية: هي منظومة فكرية مترابطة تهدف إلى تفسير ظاهرة معينة استنادًا إلى منهج منطقي أو تجريبي. وقد تستند النظرية إلى استقراء للوقائع التاريخية أو إلى استنتاجات عقلية دقيقة ضمن إطار فلسفي متماسك.

هل العقد الاجتماعي مجرد فرضية فلسفية؟

من حيث الأساس، يمكن اعتبار العقد الاجتماعي **فرضية فلسفية**، نظرًا لعدم وجود دليل تاريخي ملموس على حدوثه كواقعة فعلية. فلم يعثر المؤرخون على وثائق

أو شواهد تثبت أن أفراد مجتمع معين اجتمعوا في لحظة محددة لإبرام عقد يقضي بتفويض السلطة إلى حكومة مركزية.

كما أن "الحالة الطبيعية" التي افترضها كل من **هوبز** و**لوك** و**روسو** لم تكن إلا بناءً عقليًا يستخدم لأغراض تحليلية. فهي حالة لم توجد بالمعنى الواقعي، بل استُحضرت كأداة لفهم **الانتقال من الفوضى إلى النظام، ومن الحرية المطلقة إلى النظام السياسي المنظم**.

إضافة إلى ذلك، فإن التباين الجوهري بين تصورات الفلاسفة الثلاثة حول طبيعة هذا العقد ومضمونه يضعف من إمكانية اعتباره حقيقة تاريخية موحدة، ويؤكد أنه **أداة فلسفية تحليلية** تسعى إلى فهم السلطة وتحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

هل العقد الاجتماعي نظرية سياسية؟

رغم كونه فرضية فلسفية من الناحية التاريخية، إلا أن العقد الاجتماعي يمكن النظر إليه أيضًا كـ **نظرية سياسية معيارية**، أي كنموذج فكري يصف ما ينبغي أن تكون عليه السلطة السياسية، لا ما هي عليه في الواقع فقط.

ويمكن اعتبار العقد الاجتماعي **نظرية** وفق معايير الفلسفة السياسية، للأسباب التالية:

تفسيره لنشوء الدولة والسلطة: فبالرغم من غياب دليل تاريخي مباشر، ساعدت تصورات العقد الاجتماعي في بناء تفسير عقلاني لتطور البنية السياسية في المجتمعات، خاصة في ما يتعلق بمفاهيم مثل **شرعية السلطة** و**الإرادة الشعبية**.

تأثيره العملي والتاريخي: لم تبقَ فكرة العقد حبيسة التأمل النظري، بل أثّرت بعمق في تشكّل أنظمة سياسية حديثة، مثل **الديمقراطية الليبرالية**، والدساتير التي تستند إلى مفهوم **سيادة الشعب** و**الحقوق المدنية**.

اتساقه المنطقي داخل منظومة فلسفية: قدّم كل من هوبز ولوك وروسو رؤى فلسفية متكاملة، تستند إلى منطق داخلي متماسك يشرح آلية نشوء الدولة ويبرر وجود السلطة السياسية. وهذا الاتساق يجعل من العقد الاجتماعي نموذجًا نظريًا راسخًا في الفلسفة السياسية، رغم طبيعته الافتراضية.

ثالثًا: الاختلافات بين الفلاسفة حول العقد الاجتماعي

1. توماس هوبز (1588–1679): العقد الاجتماعي كأساس للسلطة المطلقة

يرى **توماس هوبز** أن الحالة الطبيعية التي عاش فيها الإنسان قبل ظهور الدولة كانت حالة من **الفوضى والصراع المستمر**، عبّر عنها بعبارته الشهيرة: "حرب الجميع ضد الجميع". في تلك الحالة، كانت الحياة بحسب وصفه: "منعزلة، فقيرة، بائسة، وحشية، وقصيرة".

انطلاقًا من هذا التصور المتشائم للطبيعة البشرية، يرى هوبز أن **العقد الاجتماعي ضرورة وجودية**، نشأ لا بدافع الفضيلة أو الأخلاق، بل بدافع **غريزة البقاء**. فالإنسان، في نظره، كائن أناني بطبيعته، مدفوع برغباته الفردية، ولا يسعى إلى الخير الجماعي، بل إلى تحقيق مصلحته الخاصة. في كتابه الليفياثان، يقول بوضوح:

"ليس هناك ما يسمى خيرًا أو شرًا خارج ما يرغبه الإنسان لنفسه."

من هذا المنطلق، اعتبر هوبز أن **الحرية الطبيعية** التي يتمتع بها الإنسان تؤدي بالضرورة إلى الفوضى. ولهذا، فإن الأفراد – بدافع الحفاظ على حياتهم – **تنازلوا عن كامل حقوقهم لصالح سلطة مطلقة**، يمثلها "الليفياثان"، أي الحاكم القوي القادر على فرض النظام بالقوة.

ولأن غاية العقد هي تحقيق الأمن، فإن **الطاعة المطلقة للسلطة** تصبح واجبًا، حتى وإن تحوّل الحاكم إلى طاغية. لا يحق للأفراد التمرد عليه طالما أنه قادر على حماية حياتهم. ففي نظر هوبز:

"الحق الطبيعي يمنح الإنسان حرية مطلقة، لكن هذه الحرية تقود إلى قانون الغاب."

ويؤمن هوبز بأن محاولة توزيع السلطة أو التعددية السياسية ليست سوى بوابة جديدة للفوضى. لذا، فهو **يرفض الديمقراطية صراحةً**، ويعلل رفضه هذا بأن الطبيعة البشرية ليست أخلاقية، بل حيوانية في جوهرها، تسعى فقط إلى البقاء، مهما تنوّعت ألوانها أو ثقافاتها:

"كلما زادت الأصوات، زاد الشقاق، وزادت فرص العودة إلى الفوضى."

ويؤكد في هذا السياق أن منح الإنسان الحرية السياسية سيقود حتمًا إلى انهيار النظام:

"عندما يُمنح الإنسان حرية التصرف كما يشاء، لن يكون هناك قانون سوى قانون الغاب."

وهنا تبرز الفكرة المركزية في فلسفة هوبز: **السلطة المطلقة ليست اختيارًا، بل ضرورة وجودية.** ولهذا، فإن من يسلّم حريته إلى السلطة، **لا يملك الحق في الاعتراض عليها،** ما دامت تقوم بوظيفتها الأساسية: الحماية.

لكن ماذا لو كان الحاكم جائرًا؟ هل تظل الطاعة واجبة؟

يجيب هوبز عن ذلك من خلال تصوّره أن **السلطة انعكاس للشعب نفسه؛** فهم من اختاروا التنازل عن حريتهم، ومن ثم فإنهم يتحمّلون نتائج اختيارهم. فـ"لون السلطة لا يختلف عن لون الشعب"، على حد تعبير هوبز، وبالتالي فإن **التمرد على السلطة ليس سوى تمرد على الذات**.

2. جون لوك (1632–1704): العقد الاجتماعي كأساس للحقوق الطبيعية

على النقيض من هوبز، لم يرَ **جون لوك** أن الحالة الطبيعية كانت فوضوية أو دامية بالكامل، بل اعتبرها حالة يتمتع فيها الإنسان بـ**حقوق طبيعية** غير قابلة للمصادرة، كالحياة والحرية والملكية. لكن، ورغم أن هذه الحقوق مكفولة للطبيعة البشرية ذاتها، إلا أن **غياب سلطة تنفيذية محايدة** دفع لوك إلى القول بضرورة قيام حكومة تُنظّم العلاقات وتحمي الحقوق، عبر عقد اجتماعي **يُنشئ السلطة لا ليُطلق يدها، بل ليُقيدها**.

وهنا نصل إلى المفارقة الجوهرية بين لوك وهوبز، ويمكن تلخيصها بعبارة واحدة:

لوك يرى أن الإنسان مدفوع بدوافع أخلاقية، بينما هوبز يراه مدفوعًا بغرائز البقاء.

يرفض لوك توصيف هوبز للإنسان بوصفه كائنًا أنانيًا متوحشًا. بل يرى أن الإنسان، بطبيعته، **كائن عقلاني،** قادر على التمييز بين الصواب والخطأ، وعلى التفاعل مع الآخرين ضمن قواعد سلمية. يقول:

"الإنسان ليس مخلوقًا وحشيًا بطبيعته، بل هو كائن عقلاني يستطيع التمييز بين الصواب والخطأ."

لكن هذه الرؤية المتفائلة تثير سؤالًا وجوديًا:
إذا كان الإنسان عقلانيًّا ومسالمًا بطبعه، فلماذا يحتاج إلى عقد اجتماعي ودولة؟

هنا تكمن نقطة ضعف فلسفة لوك مقارنة بهوبز، إذ تبدو أسباب تأسيس العقد الاجتماعي لديه **أقل قوة من حيث المنطق الوجودي**. فلو كانت الطبيعة البشرية بالفعل عقلانية وأخلاقية، ما الداعي لإقامة دولة تحمي الإنسان من "أخيه الإنسان"؟
لكن لوك يقدّم توضيحًا مهمًّا: الإنسان عقلاني، نعم، لكنه **ليس دائمًا عادلًا أو حياديًّا**، خصوصًا حين يكون الحكم في قضيته الخاصة. ففي الحالة الطبيعية، **كل فرد هو القاضي في قضيته، وهذا ما يفتح الباب للفوضى**.

وهكذا، يلتقي لوك مع هوبز – لا في الأسباب، بل في النتائج:
كلاهما يرى أن الحالة الطبيعية تؤدي في النهاية إلى الفوضى، ما يوجب وجود عقد اجتماعي ينظّم الحياة الجماعية.

إلا أن الفرق الأعمق بين الفيلسوفَين يكمن في **مفهوم السلطة**.
فبينما يرى هوبز أن الأفراد تنازلوا عن كامل حقوقهم لصالح سلطة مطلقة، يرى لوك أن العقد الاجتماعي هو **تفويض مشروط**، يظلّ الحاكم خاضعًا فيه لإرادة الشعب. يقول:

"السلطة السياسية لا تُمنح للحاكم بلا قيود، بل تُعطى له بشرط حماية الحقوق الطبيعية للمواطنين."

وبالتالي، فإن أي إخلال بهذا الشرط **يُسقط شرعية الحاكم**، بل ويُعطي الشعب الحق في الثورة عليه.
هنا، تتبلور **الركيزة الفلسفية للديمقراطية الدستورية**، حيث تُقيد سلطة الدولة بالقانون، وتُفصل السلطات، لضمان عدم تركز القوة في يد واحدة.

لقد آمن لوك بأن **السلطة تغري صاحبها**، وأنه لا يمكن ضمان عدالة الحاكم بمجرد الثقة في نواياه، لذا فوجود آلية للمحاسبة والعزل أمر ضروري. بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يرى أن **السلطة المطلقة مفسدة حتمية**، حتى لو لم يُظهر الحاكم أي طغيان في البداية.

يقول لوك:

"إذا تجاوز الحاكم سلطته، فمن حق الشعب الإطاحة به وتأسيس حكومة جديدة."

لكن الأهم من هذا القول هو ما يتضمّنه من موقف مبدئي:
لوك لا يشترط فساد الحاكم كي يثور الشعب عليه، بل يكفي أن تتضخم سلطته.

لأن مجرد تراكم السلطة يُعتبر خطرًا وجوديًّا، حتى لو لم يُستخدم في الشر. وهنا تتجلى **الحدسية السياسية العميقة** لدى لوك، فهو يرى أن السلطة تميل إلى الفساد بطبعها، تمامًا كما يرى أن العقل البشري، رغم حكمته، قد يُغويه الحكم إذا خلا من الضوابط.

إن فلسفة لوك لا تكتفي بتأسيس العقد الاجتماعي كوسيلة لحفظ الحقوق، بل **تؤسس لفكرة الثورة كحق أخلاقي وسياسي**، وتضعها في صميم العلاقة بين الشعب والسلطة.

3. جان جاك روسو (1712-1778): العقد الاجتماعي كأساس للإرادة العامة

قدم روسو تصورًا مختلفًا جذريًا، حيث اعتبر أن العقد الاجتماعي يجب أن يقوم على الإرادة العامة، وليس على مجرد اتفاق بين أفراد منفصلين. فالدولة، وفقًا له، ليست مجرد وسيلة لحماية الحقوق الفردية كما تصورها لوك، بل يجب أن تكون تعبيرًا عن الإرادة الجماعية للشعب.

يرى روسو أن الإنسان في حالته الطبيعية كان كائنًا حرًا وخيّرًا، لا يعرف الفساد أو الجشع. لكن مع ظهور الملكية الخاصة، بدأت الطبقية الاجتماعية، مما أدى إلى نشوء أنظمة سياسية غير عادلة. ويعبّر عن هذه الحال بعبارةٍ قوية تنقل الواقع بصورةٍ معبّرة:

"الإنسان وُلد حرًا، ولكنه في كل مكان مكبّلٌ بالأغلال."

وهذه الأغلال ليست إلا القوانين والأنظمة التي وضعتها النخبة الحاكمة لحماية مصالحها على حساب الشعب.

هذه النظرة للإنسانية قبل نشوء الدولة جميلة في خيالها، ولكنها في الواقع ليس لها أثر. نحن عندما نقول "رؤية ما"، لا نعني أننا نراها في أذهاننا مجردة من الواقع، بل يجب أن يصادق الواقع عليها.

يعتقد روسو أن الملكية الخاصة هي السبب الرئيسي لظهور عدم المساواة والظلم في المجتمع، حيث يقول:

"أول من أحاط قطعة أرض بسياج وقال: 'هذه لي'، كان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي."

ومن هنا، يرى أن العقد الاجتماعي يجب أن يصحّح هذا الخلل ويعيد التوازن إلى المجتمع.

فمع ظهور الملكية الخاصة، ظهرت الفوارق بين الأشخاص، والتي أدّت في النهاية إلى بدء الأقوياء بفرض سيطرتهم على الضعفاء، مما أدى إلى ظهور أنظمة سياسية لحماية مصالح الطبقات المهيمنة. وهنا انهارت تلك الحالة الجميلة التي امتلكها المجتمع قبل ظهور الملكية الخاصة.

ولولوج جوهر الفكرة، يجب علينا أن نفهم العمود الفقري لنظرية روسو في العقد الاجتماعي، وهو **الإرادة العامة**.
الإرادة العامة عند روسو ليست مجرد رأي الأغلبية، وليست أيضًا مجموع الإرادات الفردية، بل هي الإرادة التي تعبّر عن مصلحة المجتمع ككل.
بعبارةٍ أخرى: هي ما يجب أن يكون عليه القانون لتحقيق العدالة والمصلحة العامة، وليس فقط ما يريده الناس بشكل لحظي أو فردي.
"كل فرد يتنازل عن حقوقه للمجتمع ككل، لكنه يستعيدها من خلال الإرادة العامة."
بمعنى أن الأفراد لا يخسرون حريتهم حينما يلتزمون بالقوانين، لأن هذه القوانين يجب أن تكون نابعة من الإرادة العامة، أي من مصلحة الجميع، وليس من إرادة الحاكم أو فئة معينة.

ويجب أن أوضّح هذه الإرادة بشكل لا يختلط أو يلتبس على القارئ.
هناك نوعان من الإرادة في الفكر السياسي:

الإرادة الخاصة: تعبّر عن المصالح الفردية أو الفئوية، وتهدف إلى تحقيق مكاسب شخصية أو لمجموعة معينة.

الإرادة العامة: هي الإرادة التي تعبّر عن المصلحة المشتركة لجميع المواطنين، وتهدف إلى تحقيق العدالة والمساواة بين الجميع.

أما إذا كانت "إرادة الجميع" ذات مكاسب تمثّل مجموعة أو فئة معينة من الناس، فإن هذه الإرادة لا يعتبرها روسو إرادة عامة، بل يعتبرها مجموعة من الإرادات الخاصة.
مثال توضيحي:
إذا قرر المجتمع فرض ضرائب لتمويل التعليم والصحة، فهذه إرادة عامة لأنها تخدم الجميع.
أما إذا طالب الأغنياء بإعفاءات ضريبية لحماية ثرواتهم، فهذه إرادة خاصة لأنها تفيد فئة معينة فقط.

نعم، هي ليست إرادة فردية بشكل خاص، ولكنها في جوهرها تعبّر عن إرادة خاصة.
"هناك فرق بين إرادة الجميع والإرادة العامة: الإرادة العامة تأخذ بعين الاعتبار المصلحة العامة، بينما إرادة الجميع هي مجرد جمع للإرادات الفردية."

الرأي الآخر الذي طرحه روسو في نظريته عن العقد هو **الديمقراطية المباشرة**.
لكي تتحقق الإرادة العامة، يجب أن يكون هناك نظام سياسي يسمح للمواطنين بالمشاركة المباشرة في سن القوانين. وهذا هو سبب تأييد روسو للديمقراطية المباشرة بدلًا من الديمقراطية التمثيلية.
فهو لا يريد أن يقرر الحكام أو النواب القوانين، بل يريد أن يشارك الشعب بأكمله في اتخاذ القرارات.
"السيادة لا يمكن أن تُنقل، لأنها لا يمكن أن تُقسم. السيادة هي الإرادة العامة، ولا يمكن أن يتم تمثيلها."

وعلى هذا الأساس، رأى روسو أن الديمقراطية المباشرة هي الشكل الأمثل للحكم، حيث يشارك المواطنون بشكل نشط في صنع القرار.
وقد كان لفكره تأثير عميق على الحركات الثورية، لا سيما الثورة الفرنسية.

أقولها صراحة: إن روسو لم يعش الواقع حتى يعلم أن جوهر فكرته ضربٌ من خيال.
ليس لأنه ركيك الفكر، لا، بل لأنه ذهب بعيدًا في حلمه عن الحياة.
تلخبطت أفكاره ولم ترتبها أوراقه، اعتمد على أصلٍ لم يكن موجودًا، أو دليل على وجوده.
بنى هذا البناء على أساس لم يقدم عليه حتى دليلاً عقليًا، فأصبح بناؤه سهلَ الضرب من قِبل أي ناقدٍ يمر بجواره.
لأن النقاد إذا مرّوا بصرحٍ فحصوا ثابته، أما إذا مرّ السياح، سُحروا بشكله.

قلتُها مرارًا وسأقولها تكرارًا:
إن رؤية المفكر إلى الحرية لن تعطينا تعريفًا حقيقيًا للحرية، لأنها موضعٌ عقليّ بشكل مطلق، وليس لها وجود ماديّ يخضع إلى معرفةٍ تجريبيةٍ قطعية.
اعتقد هوبز أن الحرية تعني الطاعة الكاملة للدولة، لأنها تحمي الأفراد من الفوضى.
بينما يراها لوك على أنها تعني امتلاك حقوق طبيعية محمية بالقانون.
بينما هذا الجميل الغريب، روسو، يرى أن الحرية الحقيقية تتحقق عندما يلتزم الأفراد بالقوانين التي يسنّونها بأنفسهم عبر الإرادة العامة.

عند النظر في الرؤية الخاصة بهؤلاء الحكماء عن الحرية، سنجد اختلافًا كبيرًا، ونميل إلى الحكيم الذي يكون قريبًا من مذهبنا الفكري.
أرى أنهم جميعًا كانوا على حق، وأنهم جميعًا **لم** يكونوا على حق.

رابعًا: العقد الاجتماعي في الفكر السياسي الحديث

لم تبقَ نظرية العقد الاجتماعي محصورة في كتابات الفلاسفة الكلاسيكيين، بل تطورت لاحقًا من خلال مفكرين مثل:

إيمانويل كانط، الذي رأى أن العقد الاجتماعي هو مبدأ أخلاقي يضمن كرامة الإنسان وحريته. يقول:

"إن العقد الأصلي (الاجتماعي) الذي يقوم عليه أي تشريع قانوني يجب أن يكون قائمًا على مبدأ إمكان الموافقة الحرة لجميع الأفراد عليه، بوصفهم مشرعين مشاركين في سن القوانين."

وهنا، لا يتحدث كانط عن الحرية المثالية التي نتخيلها عند استذكارنا لمفهوم الانتخاب؛ ربما كان يقصد أنهم كانوا أحرارًا في توحيد قواهم تحت سلطة موحدة تضمن حقوقهم.
وإقرار كانط بوجود هذا العقد لم يكن باعتباره حدثًا تاريخيًا، بل كان لتفسير وجود القوانين وإضفاء الشرعية عليها، ولفهم المؤسسات السياسية.

"العقد الأصلي ليس اتفاقًا فعليًا تم التوصل إليه بين البشر في زمن معين، بل هو فكرة عقلية معيارية تُمكّننا من الحكم على شرعية القوانين والمؤسسات السياسية."

جون رولز، من جهته، أعاد تفسير العقد الاجتماعي في كتابه نظرية العدالة، مقترحًا نموذجًا افتراضيًا يكون فيه الأفراد في "الوضع الأصلي"، حيث يختارون مبادئ العدالة دون معرفة مواقعهم الاجتماعية:

"العقد الاجتماعي ليس اتفاقًا تاريخيًا، بل هو تجربة فكرية تهدف إلى تحديد المبادئ التي يمكن للأفراد العقلانيين الاتفاق عليها في ظروف منصفة."

كان رولز يحاول أن يفترض وجود العقد الاجتماعي الآن، بهدف تطبيقه لاحقًا للوصول إلى نظام أكثر عدالة. والحقيقة أنه كان ينظر إلى هذا العالم من منظار خيالي إلى حد كبير. نعم، المبادئ التي طرحها جميلة، لكنها ليست واقعية.

"العدالة هي الفضيلة الأولى للمؤسسات الاجتماعية، كما أن الحقيقة هي الفضيلة الأولى لنُظُم الفكر."

يمكن القول إن العقد الاجتماعي هو فرضية فلسفية من حيث إنه لم يحدث تاريخيًا، لكنه في الوقت ذاته نظرية سياسية مؤثرة، بالنظر إلى تأثيره العميق في الفكر السياسي والتشريعات الدستورية الحديثة.

إنه يقدم إطارًا لفهم العلاقة بين الأفراد والسلطة، لكنه ليس التفسير الوحيد لنشوء الدولة؛ إذ توجد نظريات بديلة، مثل:

نظرية القوة، التي ترى أن الدولة نشأت من خلال إخضاع الأقوياء للضعفاء.

النظرية التاريخية لنشوء المجتمعات، التي تربط تطور الدولة بعمليات اجتماعية واقتصادية معقدة على مرّ الزمن.

يمكننا الآن أن نقول:
ليس هناك دليل مادي على حصول هذا العقد، ولكن في الوقت ذاته، لا يوجد ما ينفي حصوله.
وهذا الغياب لأي دليل مادي جعلنا نطرح دليلًا عقليًا مطلقًا. فجميع الحكماء الذين أقروا بوجود هذا العقد، أقرّوا به بشكل أو بآخر، لكنهم اختلفوا في الظروف التي أدّت إلى نشأته.

وربما، إذا ما وصلنا يومًا إلى دليلٍ قطعي في المستقبل، يجيب على هذا التساؤل الكبير:
ما الذي حصل للإنسان قبل عشرة آلاف عام؟

الفصل الثالث

الأنظمة السياسية(3-1)

هنالك العديد من الأنظمة السياسية التي نظّم بها الإنسان سياسة حياته الخاصة. ومن بين هذه الأنظمة، ما هو ظالم لفئة ومُنعِم على أخرى. وهذه حال جميع الأنظمة بلا استثناء—even تلك التي نتبناها اليوم—فهي تقوم على وجود الفوارق الطبقية بين فئات المجتمع المتعددة. وهذا الظلم أمر "طبيعي"، بحكم امتلاك القوة وموضع استقرارها.

لكن قبل الإقبال على فهم سبب وجود الظلم في جميع الأنظمة السياسية، لا بد أن نناقش معضلة فلسفية سابقة. وهي: **عدم تطابق الفكرة الموجودة في أذهاننا مع الواقع المحيط بنا**. وهذه هي المعضلة القديمة للبشرية منذ بدايتها.

خذ مثلًا: **الرأسمالية**. فكرتها في الذهن تبدو جميلة، بل شبه متكاملة. ولكن عند محاولة تطبيقها، تظهر صورٌ من الظلم. فهل المشكلة في مبادئ الفكرة ذاتها؟ أم في من يطبقها، لأنه في داخله لا يؤمن بها؟ للإجابة على هذا، لا بد أن نفهم: ما هو الواقع؟ وما حدود عقلنا في فهم هذا الواقع؟

لا يمكن أن نؤمن بفكرة موجودة في الواقع دون أن يكون لها أصل **تجريبي**. الأفكار العملية لا يمكنها أن تمتلك أصلًا غير تجريبي. فجوهر هذه الأفكار هو التجربة. كيف تقنع الغني بإعطاء المال للفقير، وهو لا يفكر إلا بنفسه؟ هل تظن أن الدافع الأخلاقي سيكون كافيًا دائمًا؟ لا، وألف لا.

الدول الآن تفرض ضرائب على الأغنياء، وتهددهم بالعقوبات إن تخلفوا. ومع ذلك، يلجأ الأغنياء للحِيَل والطرق للتهرب. يفعلون كل شيء حتى لا يُعطوا المال بالغصب، سواء قلت لهم: "إن لم تفعلوا ستُرمون في جهنم"، أو "في السجن"، سيظلون يهربون.
لأن المال، عند البعض، **هو الحياة نفسها**:

"ما كان لي وأراه الحياة، وفيه عيشي، سأفني عمري فيه."

فحين تأتيه القيم والمبادئ التي يحملها نظام سياسي، يسعى هذا الشخص للتحايل والخداع للحفاظ على المال الذي يعيش لأجله.

هذا التناقض بين الواقع والفكرة المطلقة المرسومة في الذهن هو أصل المعضلة، والتخلص منه يتطلب أفكارًا ذات **توجه تجريبي–عقلي**، لا مطلقًا عقليًا ولا مطلقًا تجريبيًا. فـ**المنهج التجريبي المطلق ليس حلاً كذلك**.

الحقيقة لا يمكن قياسها بالعقل مطلقًا. يمكننا فهم **الواقع**، لكن لا يمكننا معرفة **حقيقة الواقع** لذاته.
ولست هنا أغلق الباب كما فعل "كانط"، ولا أفتحه للوهم، بل أقول: **العقل ليس هو المفتاح الوحيد للحقيقة**.
العقل أداة، وسيلة لفهم ما تسعى النفس للوصول إليه.
أما "نظرية المعرفة" التي أشير إليها، فسأتناولها لاحقًا في **"رسالة إصلاح النفس"**.

لا يستطيع الإنسان بمفرده أن يفهم محيطه بالكامل ليضع أنظمة وقوانين شاملة. لنضرب مثالًا:
شخص لديه دار في أحد شوارع حيٍّ ما. كلما ابتعد عن غرفته، قلّت تفاصيل معرفته وازداد جهله. فإن أراد أن يضع نظامًا يشمل الحي كله، سيكون مليئًا بالأخطاء. أما إن كان حكيمًا، وأدرك حدود معرفته، فسيقول: "سأشرك سكان الحي لأنهم أدرى ببيوتهم."
وهكذا، نخرج **جميعًا** بنظام شامل، لأن **النقص لا يمكن نفيه، ولكن يمكننا تجاوزه**.

هذه المشكلة لا تُحل بشكل دقيق حتى من خلال التعاون الفكري، لكنه يبقى الأفضل. نجاح جميع العلوم مبني على التعاون الفكري.
ولا يمكننا قياس الجودة الفكرية من خلال الكمال الذي يقدمه الفرد. فمثلًا:
لا يمكن القول بأن أينشتاين "أفضل" من نيوتن لأن نظريته في الحركة أكثر تطورًا، فلو لم يضع نيوتن أساسات نظريته، لما بَنى عليها أينشتاين.
وكذلك، لا يمكن القول بأن نيوتن "أفضل" لأنه السبّاق. فالفكر البشري **سلسلة متصلة**، شعلة يحملها أحدهم ويسلمها لمن بعده.

هذه العقيدة الفكرية، **عقيدة التكامل والتعاون**، هي ما نفتقده أحيانًا، وربما كانت هي ما ميّزنا عن بقية الحيوانات.

من أراد أن يتكامل دون هذه العقيدة، **إما إله... أو ساذج.**

هذه العقيدة في بناء الأنظمة السياسية **تعطّل أحيانًا وتعمل أحيانًا**.
ومعظم الأنظمة السياسية، كما هو واضح، أفكارها **عقلية مطلقة**، وأقلها **عملية**

تجريبية. والسبب؟ أن من يمتلك القوة لتطبيق هذه الأنظمة هم الأفراد، وهنا تقع **المعضلة**.

القوة السياسية كثيرًا ما تكون بيد الجهلاء، لا العقلاء. فكيف لهذه العقيدة أن تعمل؟ إنها **لن تعمل**.

الجهل العام هو من يسلم مفاتيح القوة التنفيذية بيد الحمقى. خذ مثالًا:
لو ترشح عالم وأحمق لمنصب حكومي، فإن الأغلب أن المنصب سيذهب للأحمق، لأن الحمقى يستطيعون مشاركته في حمقه.
لذلك، لا نرى العلماء والمفكرين في المناصب، لأن العقل العام **لا يفهمهم** ولا يقدّرهم.

"لا تقل لي أمرًا حكيمًا، بل أخبرني كيف ستمتعني؟"
هذا هو مبدأ العامة في التعامل مع الحكماء.
كم تمنيت لو أن حياتنا تُدار من قِبل الحكماء...
لكن للأسف، لن يحكمنا من لا نفهمهم.
والمشكلة ليست فقط أن هذه الأمنية غير واقعية، بل إن تحققها قد يفقد الحياة معناها.

هذا الوجود الذي نراه ونحسه ليس حقيقة مطلقة.
فهو الدليل الوحيد المتاح للعقل، لكنه **ليس معصومًا**.
قارن بين ما تراه أنت، وما تراه الأفاعي.
هل رؤيتك هي الحقيقة؟ أم رؤيتها؟
أم أن كلاكما يرى **وهمًا** صوّرته الحواس بطريقة معينة؟

علينا أن نعيد النظر في دليلنا الأولي للمعرفة، وهو **الحواس**.
الرؤية ليست "عين الحقيقة"، بل هي **تصريح بماهية الحقيقة**.
فنحن لا نفهم كيف تعمل أعيننا، ولذلك لا يجوز أن نعتبر ما تراه الأعين **حقيقة مطلقة**.

وحينها، سيكون العقل مضطرًا لقبول التجربة كأعلى درجات المعرفة، لا لأنها مطلقة، بل لأنها **أفضل المتاح**.

نظرية كانط المعرفية كانت ثورة:
العقل لا يستطيع المعرفة إلا من خلال التجربة، لا من خلال الأفكار المطلقة.
وأنا أقول له:

حتى ما نراه ونحسه ليس هو الحقيقة، لأننا لا نفهم ما هي الحقيقة.
نحن فقط نرى صورًا، فظننا أنها هي الحقيقة.

لا، لست أفنّد كانط. بل أُكمل فكرته.

نظرية جديدة سأطرحها، وهي:

ليست هناك معرفة حقيقية قط،
لا عقلية، ولا تجريبية.
بل كل ما لدينا هو صور وظنون، ليست عين الحقيقة، ولا جوهرها.

فإنني عندما أرى الشجرة، لا أقول إنني لا أعرف حقيقة ذات الشجرة فقط، وإنما حتى صورتها بالنسبة لي غير حقيقية.
من قال إن هذه الصور التي رسمتها أعيننا هي الصور الصحيحة؟ وما هو الدليل الحقيقي على أن المادة التي نعيش فيها، هي كما نراها؟
فإذا كانت كذلك، فكأننا قد بلغنا أقصى عمق يمكن للعقل الوصول إليه.
لكن العقل لا يدرك الحقيقة مطلقًا، ولأجل أن نُدركها فعلًا، يجب أن نجد مصدرًا آخر غير العقل يفتح لنا أبوابها.

العقل لا يُميّز الحقيقة بواسطة ما يُنقل له من الوسائط.
لقد ظن أن السراب وهم لأنه رأى شيئًا، وحين حاول الوصول إليه، لم يجده.
أي أنه رأى أمرًا مغايرًا للبيئة التي اعتادها، أملاً بشيء يحتاجه بشدة، وحين فشل في لمسه أو التحقق منه عبر الحواس الأخرى، حكم بأنه غير موجود.

لكن هذا الحُكم مبنيّ على عادة العقل في ربط وجود المادة بثباتها وتحقيق الحواس المختلفة لها.
فهو يثق بما يراه فقط إذا وافقته الحواس الأخرى، كأن تقول له حاسة اللمس: نعم، ما رأيته موجود.
أما إن خالفت، فيرفض العقل الصورة كلها.

السراب في ذاته موجود، ولكن العقل لا يمكنه إثبات هذا، لأنه قاصر عن معرفة الذات.
فإذا لم يجده كما اعتاد، أنكره، ونفى ذاته، وهنا يقع في الخطأ نفسه دومًا: **نفي الذاتي والقبول بها في آنٍ واحد**.

لهذا، فإن كل ما نعتبره حقيقة توصلنا إليها بواسطة عقولنا وحدها، يجب ألا نُسلّم بأنه حقيقة مطلقة.
بل من الأفضل أن نطرح هذه المسائل للنقاش الجمعي، كمجموعة مفكرين، نُعمِل عقولنا معًا لنصل إلى حل يعالج هذه المعضلة.
لأن التأملات الفردية وحدها قاصرة، خصوصًا حين تكون في مسائل ترتبط بالمجموع، فالتأملات لا تنبع من الفراغ، بل ورثناها ممن سبقونا، وها أنا بدوري أقدّمها لكم، لخدمة نوعنا.

الإنسان، بطبيعته، كائن يبحث عن الخير دائمًا.
لكن المشكلة أن هذا الكائن البائس يعيش في بيئة تُصعّب عليه هذا البحث، وتجعل منه أمرًا شبه مستحيل.
لو جئنا بسمكة وألقيناها خارج الماء، فإنها ستموت، لا لأنها غير قادرة على الحياة، بل لأنها غير قادرة على الحياة **في هذه البيئة**.

الإنسان هو أيضًا كذلك.
بيئته لا تسمح له بأن يكون على طبيعته.
البيئة تدفعه للشر، فتجعل من الصعب عليه أن يكون كما يجب.
فهو لا يموت، لكنه لا يعيش الحياة التي صُمم لأجلها.

المشكلة إذًا هي في **البيئة**.
هذه البيئة التي تُكبّل الإنسان، تُقيّده، تجعله مشلول الإرادة، لا يقدر على فعل ما يُفترض به فعله.
ومن هنا تبدأ المأساة...
من **عجزنا عن إدراك الحقيقة بسبب الحُجُب البيئية** التي تمنعنا من رؤيتها، وتجعلنا نعيش خارج حقيقتنا، كما عاشت السمكة خارج مائها.

عندما أنظر بعيني المجردتين في الليل، نحو النجوم، تدمع عيناي.
لا لأنني رأيت شيئًا مرعبًا...
بل لأنني حين أرى تلك النجوم، أشعر أن الحياة كلها معلّقة هناك فوقها.
ما تراه عيني ليس ما يراه قلبي.

ولهذا، على الإنسان أن **يشعر**...
أن يحب، أن يبكي، أن يفرح، أن يتألم، أن **يشعر**.

سأبقى أبكي حتى أموت،
وسترون وجهي يومها تعلوه ابتسامة لم أبتسمها في حياتي،
لأنني أعلم أنني لم أعِش "الدنيا" قط.
لقد خُلقتُ لأعيش "الحياة".

يجب أن أتحرر من قيود هذه الدنيا حتى أشعر بالحياة الحقيقية.
حينها لن أحتاج إلى عينيّ لأبصر،
بل سأبصر كل شيء بعين **قلبي**،
لا بعين **عقلي** الذي تخدعه المظاهر،
المظاهر التي لا حقيقة ثابتة لها،
والتي جعلت من العقل آلة، عبَدها الناس وجعلوها إلها.

على مرّ التاريخ، لجأ البشر إلى أنظمة حكم مختلفة،
تعكس اختلاف الثقافات والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

هذه الأنظمة غالبًا ما كانت نابعة من أصل فكري،
لو تتبعنا أثره بدقة، لوجدنا أن بعض تلك الأصول لم تعد واضحة،
فقد تشوّهت وتبدلت أثناء انتقالها من جيل إلى آخر، حتى أصبحت مبهمة.

النظام الملكي(3-2)

يُعدّ النظام الملكي من أقدم أنظمة الحكم التي لجأ إليها البشر عبر التاريخ.
فهو يقوم على حكم فردٍ أو عائلة، وغالبًا ما تُنقل فيه السلطة عبر التوارث الوراثي من جيلٍ إلى جيل.
وتُبرّر هذه السلطة إمّا بشرعية تقليدية، أو بشرعية دينية، حيث يُنصَّب الملك أو الملكة بوصفه تجسيدًا للاستمرارية التاريخية، أو رمزًا للوحدة الوطنية.

لكن هذا الغلاف التقليدي، هذه الهالة التي تحيط بالنظام الملكي، كثيرًا ما كانت مصيبةً عظيمة على بعض الشعوب، ونعمةً غريبة على شعوبٍ أخرى.
وهذا التقلّب، في حقيقته، لا يصدر عن النظام نفسه، بل عن الحاكم.
فمتى كان الحاكم حكيمًا وعادلاً، عاشت الناس في نعيم.
ومتى كان الحاكم جاهلًا أو أحمق، عاشوا في لعنات لا تنتهي.

غير أن أصل المأساة لا يكمن فقط في الحاكم، بل في وعينا نحن... في إدراكنا لما هو موجود.
نحن لا نستطيع إدراك الحقيقة في ذاتها، مهما طال بنا الزمن، ومهما خضنا في أعماق المعرفة.
حتى البرتقالة، إنْ تأملتَها سبعين أو ثمانين عامًا، لن تستوعبها كوجودٍ كامل، لن تُدرك ذاتها الحقيقية.
ستعرف عنها الكثير، ستفهم صفاتها، لكنها تظل خارج قبضتك المعرفية.

ذلك لأن عقولنا لا تُدرك الذوات، لا تُدرك الوجود في عمقه، في جوهره.
العقل قاصر، لا يملك أن يرى ما وراء حجاب الحقيقة.
وإذا عجزنا عن إدراك الموجود البسيط، فكيف ندّعي فهم النظام أو التاريخ أو الحاكم؟

لهذا، نحن بحاجةٍ إلى نظرية معرفية جديدة، تكشف حدود عقولنا، وتفضح طموحات نفوسنا.
العقل لا يقدر، لكنه مدفوع من النفس ليتجاوز حدوده.
والمخيلة، حين تستجيب لرغبة النفس، تُجبر العقل على أن يتخيّل ما لا يُدرَك، أن يتجاوز الممكن، ويخترق المستحيل.

ليست المشكلة في فهم الواقع، بل في فهم الموجودات كلّها.
وحين عجز الحكماء القدماء عن هذا، قالوا بوحدة الوجود، لكن حتى هذه الفكرة لا

تستطيع تفسير الذوات.
نحن بحاجة لفكرٍ أوسع، لنظريةٍ تتجاوز التصوف، تتجاوز الخيال، نحو وعيٍ أكثر شمولًا وأقرب إلى الواقع.

أما عن نشأة النظام الملكي، فلا نملك دليلاً قاطعًا على هوية أول ملك.
ربما لم يكن النظام وليد لحظة عقلية خالصة، بل لحظة دينية.
فالناس الأوائل، بعقولهم البسيطة، لا يمكن إقناعهم بفكرة الحُكم المطلق ما لم يُقحم فيها اسم الله.
حين لا تفهم العقول، تفهم القلوب.
والدين، في بدايته، لم يُخاطب العقول، بل استهدف العاطفة، الإيمان القلبي، الرغبة في النجاة.

فمن السهل أن تُقنع إنسانًا بدائيًا بسلطة حاكمٍ إذا قلت له إن الله اختاره.
من يجرؤ على معارضة خليفة الله؟ من يرفض إرادة السماء؟
هكذا تأسّس الحكم على قداسة زائفة، استغلت جهل الناس، لتصنع الطاعة، وتصنع العرش، وتصنع الخوف.

المبادئ الأساسية التي يقوم عليها النظام الملكي

الشرعية التقليدية والتاريخية

هذه الشرعية تُستمد من تراث الشعوب، من ذاكرة الأجداد، من التقاليد التي صارت جزءًا من الهوية.
الأسرة المالكة تصبح رمزًا للوحدة، للحفاظ على الاستقرار، وتُمجَّد لا لأنها الأفضل، بل لأنها الأقدم.
فكرة البقاء، وحدها، تُمنح صفة الاستحقاق، وكأن الوجود وحده يبرر السلطة.

الشرعية الدينية

وأما الشرعية الدينية، فهي أخطر الشرعيات.
فهي تمنح الحكم بُعدًا مقدّسًا، وتُحوّل الملك إلى "واسطة بين الله والشعب".
مجرد إعلان أحدهم أنه رسول الله، أو أنه يتحدث باسم الله، يجعله الأحق بالحكم.
وبذلك، تُمنح السلطة غطاءً لا يمكن الطعن فيه.
وكل اعتراضٍ عليها، يُصبح اعتراضًا على الله ذاته.
من هنا، استقرّت العروش، وتحوّلت الشعوب إلى خدمٍ لاسم الإله، لا لجوهر العدالة.

الأنظمة الملكية القديمة نجحت في البقاء، لا لأنها عادلة، بل لأنها حصّنت نفسها من النقد.
الخطر الوحيد الذي يُهدد العرش، لم يكن الشعب، بل العائلة نفسها.

كثير من الحكماء القدامى أيدوا النظام الملكي، لكن ذلك غالبًا لأنه لم يكن هناك بديل عملي.
فمن لم يطّلع على الملكية الدستورية، قد يقبل بالمطلقة دون اعتراض.
أما من عرف الأنظمة الحديثة، فسيُدرك قصور المطلقة وخطرها.

أوغسطين، على سبيل المثال، دعا إلى طاعة الحاكم، ولو كان ظالمًا، لأنه يرى أن السلطة تأتي من الله، وأن العقاب الحقيقي في الآخرة.
لكن هذا الموقف إما نابع من خوفه على الأبرياء، أو من قناعة خادعة بأن الله سيُنصف في النهاية.
وأنا، لا أستطيع أن أقول مثل هذا.
لا أبرر للظالمين، ولا أراهم سوى لصوص على العرش.
اللص الفقير يُجلد في الشارع، أما اللص الحاكم فلا يُمس، لأنه يرتدي تاجًا مقدسًا.

الكلّ، مع ذلك، يتفق على أن الحاكم يجب أن يكون عادلًا.
هيجل رأى في الملك تجسيدًا لروح الأمة، وهذا جميل، لكن هل روح الأمة دائمًا نبيلة؟

أما الذي أخذ عقلي كله، فهو كونفوشيوس.
رأى الحاكم بوصفه حكيمًا، طيبًا، يُطاع لأنه يُحترم، لا لأنه يُخيف.
"الملك العادل لا يحتاج إلى جيشٍ ليحكم، بل إلى الأخلاق."
لكنه لم يكن ملكًا، بل كان حكيمًا فقط.

الحكم الحقيقي ليس في امتلاك العرش، بل في أن يحكم الإنسان غيره بالعدل والطاعة.
أما فكرة أن يحكم الناس أنفسهم، فهي خيال.
فالبشر لا يشتركون في عقلٍ واحد، ولا في رغبةٍ واحدة.
وجوهر الاختلاف بين النفوس يجعل هذا الأمر مستحيلًا.
ولذلك، نحتاج إلى نظامٍ يُمكّن الحكماء من القيادة.

تشابه البشر في مظهرهم، لا يعني تشابههم في داخلهم.
والاختلاف في النفوس، هو ما سنناقشه حين تتهيأ النفوس لفهمه.

النظام الجمهوري والديمقراطي

ظهر النظام الجمهوري والديمقراطي كبديل للأنظمة الملكية، ساعيًا إلى تحقيق مبدأ سيادة الشعب والمشاركة الجماعية في اتخاذ القرار السياسي. وقد تطوّر هذا النظام عبر التاريخ ليُصبح الشكل الأكثر شيوعًا في الحكم الحديث، مع تنوّع في تطبيقاته بين الديمقراطيات المباشرة والتمثيلية.

لكن، هل كانت الديمقراطية اختيارًا واعيًا؟ هل وُلدت كنظرية سياسية نتيجة تأمل فلسفي؟ أم أنها جاءت كرد فعل اضطراري لواقع سياسي لم يسمح بغيرها؟

أرى أن الديمقراطية لم تكن نتيجة تفكير واعٍ أو تنظير فلسفي بقدر ما كانت نتيجة واقع لا يسمح بالحكم الفردي. أي أن الشعب لم يُسلّم سلطته لحاكم فرد لأنه لم يعترف أصلًا بسلطة فردية مطلقة. فكان لا بد أن يكون القرار جماعيًا، ولو جزئيًا.

إننا لا نملك دليلًا قاطعًا على أن الديمقراطية جاءت كفكرة أتى بها مفكرون محددون، بل يبدو أنها وُلدت من فشل الحكم المطلق في الاستمرار. كأنها شكل من أشكال الاضطرار السياسي، لا النظرية المتعمدة. وربما لم "يُقرّر" الأثينيون أو الرومان الديمقراطية، بل وجدوا أنفسهم فيها، لأن مجتمعهم لم يحتمل احتكار السلطة.

بل إن هذا المجتمع، الذي أنجب الديمقراطية، كان من قبل محكومًا بحكم مطلق، ثم انهار، فخرج من تحت أنقاضه نظام لا يُسلّم الحكم لفرد، بل يُقسّمه بين جماعة من الناس. وهكذا، لم يكن انهيار النظام الملكي هو ما أدى إلى الديمقراطية، بل فشل محاولات فرض السلطة الفردية هو ما أبقى السلطة بيد الشعب.

والملكية، رغم رفضي التام لها، كانت في فتراتٍ من التاريخ تُسيّر حياة الناس بوضوح وانضباط، ولم يكن لدى الناس ما يدعوهم للبحث عن بديل. لذا نجد شعوبًا بلغت في تقديس ملوكها حدّ تأليههم، بينما نجد شعوبًا أخرى احتفلت بقتل ملوكها احتفالاتٍ استمرت أصداؤها قرونًا.

ما يعني أن الحكم المطلق ليس مشكلة في ذاته، بل في من يُمارسه. فإن كان الحاكم ظالمًا، سيُسقطه الناس حتى إن لم يقتلوه.

وهنا نعود إلى السؤال الجوهري:
هل السلطة تُؤخذ بالقوة؟ أم تُمنح من الشعب؟

وقبل أن أجيب، أضع قاعدة تُفسّر السياسة كلّها:
الشعب هو مصدر القوة الوحيد.

إن كان الشعب جاهلًا بقوّته، خضع لها خوفًا، متوهّمًا أنها قوة الحاكم. بينما هي قوته هو. أما إذا وعى الشعب قوّته، فلن يكون هناك حاكم قادر على فرض نفسه من دون موافقته.

فإذا لم يعترف الشعب بحاكم مطلق، فلن تكون لقرارات هذا الحاكم سلطة حقيقية. وهنا، تكون الديمقراطية هي الخيار الوحيد المتاح، لا لأنها فكرة مثالية، بل لأنها الواقع الوحيد الممكن.

الديمقراطية لم تنشأ من الجهل، بل من الوعي والرفض. ظهرت في مجتمعات لم تستطع أن تخضع لحاكم واحد، ولم تعترف به كفكرة أصلًا.

لذلك، حين يسألني أحدهم: "ما هو أقوى سلاح تمتلكه الولايات المتحدة؟"
أُجيب: "الشعب الأمريكي".

يتعجب السائل، متوقعًا أن أذكر السلاح النووي أو الترسانة العسكرية. لكني أصرّ أن الحكومة الأمريكية لا تخشى شيئًا قدر خشيتها من شعبها. لأنه مصدر سلطتها الوحيد. وإن فقدت ثقته، سقطت.

لكن، في السنوات الأخيرة، بدأت هذه الحكومة تُغرق العامة في الجهل، كي تُبدّل طبيعتهم، وتُهيئهم لسلطة مطلقة مستقبلية.

وهنا تكمن المفارقة:
الشعب الجاهل يُمكن حكمه بسهولة.

لكن، الديمقراطية لم تكن نتاج جهل، بل نتاج استقلالية اجتماعية جعلت فرض السلطة المطلقة أمرًا مستحيلًا.

ولا أقصد بالتفكك الاجتماعي أمرًا سلبيًا، بل العكس. حين لا يكون المجتمع كتلة واحدة قابلة للخداع، فإن خداعه كليًا يصبح مستحيلًا. وإن وُجد جزءٌ جاهل، فهناك جزء آخر يقاوم.

فالحُكم المطلق لا ينجح إلّا في مجتمعات تسير كلها في نفس الاتجاه، بلا مقاومة داخلية.

والسلطة ليست شيئًا يمتلكه الحاكم، بل علاقة اجتماعية تقوم على الاعتراف والقبول. فإن لم يعترف الشعب بحاكمه، فلن يتمكّن هذا الحاكم من ممارسة سلطته، مهما امتلك من أدوات قمع.

تخيّل أن حاكمًا أراد إعدام معارض، وأمر الجلاد بذلك.
الأمر الآن بيد الجلاد، فإن خضع للحاكم، امتلكه الحاكم. وإن لم يخضع، صار الحاكم عاجزًا.

سقوط الملكية في فرنسا لم يكن بسبب الفقر وحده، بل لأن الناس لم يعودوا يعترفون بحق الملك في الحكم. وحين يكون الحاكم وحده في مواجهة الشعب، فماذا يصنع؟ وقد كانت قوته منهم، ثم انقلبت عليه؟

الاستبداد إذًا، ليس قرارًا فرديًا، بل نتيجة منظومة اجتماعية تجعل الشعب يُسلّم قوته طوعًا.

كل ظلمٍ وقع، وقع بقوة الشعب نفسه.
والملك، مهما بلغ سلطانه، هو مجرد إنسانٍ عاجز من دون شعبه.

ثانيًا: الأسس الفلسفية للنظام الجمهوري والديمقراطي

سيادة الشعب:
يرتكز النظام الجمهوري والديمقراطي على فكرة أن الشعب هو مصدر السلطات.
لكنني أسأل: ماذا لو كان هذا "المصدر" أحمق جاهلًا؟
فكيف تكون السلطة، في هذه الحالة، إلا حمقاء بدورها، جالبة للبؤس والتعاسة؟

يرى جون لوك أن الحكومة الشرعية تستمد سلطتها من موافقة المحكومين، وأن أي حكومة لا تحقق مصالح الشعب تفقد شرعيتها. يقول:

"عندما يحاول الحاكم فرض إرادته بالقوة، فإنه لا يعود حاكمًا، بل مغتصبًا، ويحق للشعب مقاومته."

أما روسو، فيرى أن:

"الإرادة العامة لا تخطئ أبدًا."
ولكن، هل يمكن لهذه الإرادة ألا تخطئ إن كان من يصوّت ويقرر لا يدرك الفرق بين مصلحته ومجرد إغراء عابر؟

المساواة السياسية:
جميع المواطنين متساوون أمام القانون، ولهم الحق في المشاركة السياسية.
هذا هو جوهر الديمقراطية، لكنه جوهر يحمل عيبًا كبيرًا: إتاحة الجهلة من عامة الشعب لتحديد مصير الجميع.

في بلدي، كانت الحملة الانتخابية تُختزل في توزيع كرات القدم والقمصان، وإن صادفت الحملة فصل الشتاء، فالكلام يكون للبطانيات والمدافئ، أما في الصيف، فالمكيفات.

لم أجد طوال حياتي مرشحًا ناظر الآخرين بأحقيته في أصوات الناس على أساس فلسفته السياسية. هذا الأمر إن ثبت، فسيثبت شيئًا واحدًا: مدى سذاجة العامة.

والسياسي الحقيقي، إذا التزم بالنهج الذي نطرحه هنا، لن يفوز بأصوات الجهلاء.
سُحقًا لشعب يختار ممثله لأنه أعطاه غطاءً أو كرة قدم!

فصل السلطات:
يستند هذا المبدأ إلى نظرية مونتسكيو، التي تنادي بفصل السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية، لضمان عدم استبداد أي سلطة.

كانت فكرة مونتسكيو محاولة لحل معضلة الاستبداد، إذ رأى أن السلطة المطلقة لا يمكن محوها، لكن يمكن الحد من تأثيرها عبر توزيعها:

"لكي لا يُساء استخدام السلطة، يجب أن يكون التنظيم بحيث تكبح السلطة السلطة."
"عندما تجتمع السلطة التشريعية والتنفيذية في يد واحدة، فلا وجود للحرية."

الفكرة أن توازن القوى هو الضمان الوحيد للحرية، وليس مجرد النوايا.

الشرعية الدستورية:

تستند الديمقراطية والجمهورية إلى دستور يحدد صلاحيات الحاكم وحقوق المواطنين.

ولكن، لا يوجد بلد اليوم إلا وله دستور... ولا يوجد بلد يطبّق دستوره كما هو، لسببين:

1. قسوة النص الدستوري.

2. قدرة السياسيين على التحايل عليه.

الدستور فكرة نظرية جبّارة، لكنه عمليًا أمر مثير للشفقة، لأنه لا يقوم إلا على قوة الدولة في تطبيقه.

كان الهدف من وضع الدستور هو تقديم قوانين منطقية للبشر، بعيدًا عن الخرافات الدينية. فبما أن الأديان تتعدد وتختلف قوانينها، ظهرت الحاجة إلى نظام موحد يحكم الجميع بمنهج دنيوي.

الدستور في شكله العملي حديث النشأة، ولم يؤدّ وظيفته المرجوة. والسبب في ذلك – برأيي – هو زوال الدين أو انحرافه عن جذوره، مما دفع الناس إلى البحث عن بديل:

نظام عادل، بقوة جبّارة، يقف على مسافة واحدة من الجميع، دون "حق إلهي" أو "شرعية سماوية".

وهكذا سيعمل المفكرون في هذا العصر على جعل الدستور هو المصدر الأعلى للتشريع، وهي حركة ستدفن النظام الديني السابق، أو تدفعه إلى الهامش إن لم تطمره كليًا.

الإرادة العامة مقابل الإرادة الخاصة:

يرى روسو أن الديمقراطية هي تحقيق الإرادة العامة التي تمثل مصلحة الجميع.

لكن بعض الفلاسفة انتقدوا هذا الطرح، معتبرين أن الإرادة العامة قد تؤدي إلى "استبداد الأغلبية".

ما الفائدة من إرادة يبديها حكيم محاصر في جمع من الجهال؟
هؤلاء الجهال – بحكم أنهم الأغلبية – سيمررون قوانينهم الواهية، ويجبرون القلائل من أهل الحكمة على الانصياع لقوانين لم يقرّوها. وهذا ما يحصل اليوم.

ثالثًا: أنواع الديمقراطية

الديمقراطية المباشرة:
يشارك فيها المواطنون بشكل مباشر في اتخاذ القرارات السياسية دون وسطاء.
مثال: الديمقراطية الأثينية القديمة.

الديمقراطية التمثيلية:
يتم فيها اختيار ممثلين منتخبين لاتخاذ القرارات نيابة عن الشعب.
مثال: الولايات المتحدة وفرنسا.

الديمقراطية شبه المباشرة:

مزيج بين الديمقراطية المباشرة والتمثيلية، حيث يتمكن الشعب من التدخل في القرارات عبر الاستفتاءات أو العرائض الشعبية.

يظل النظام الجمهوري والديمقراطي الأكثر انتشارًا في العالم اليوم، لكنه يواجه تحديات مثل:

تأثير المال في السياسة،
الاستقطاب الحزبي،
ضعف المشاركة الشعبية.

ومع ذلك، فإن المبادئ الأساسية لهذا النظام، مثل الحرية والمساواة، تظل ركيزة أساسية لأي مجتمع يسعى لتحقيق العدالة والازدهار السياسي.

لكن...

إن الأسس التي يستند عليها هذا النظام لا يمكن القول غير أنها **الخلاص للبشرية من كل الأوهام**، وجعل الناس يعيشون في سلام ووئام،
ولكن هذا لا يمكن أن يكون واقعا.

لماذا؟
لأننا عندما نريد أن نطبّق أي نظام، سنصطدم بالمبادئ الداخلية لأفراد الناس الذين يتبنون هذا النظام.

لذلك، فإن من مساوئ هذا النظام أنه **مجرد أوهام**.
يزعم أصحابه أنه هو الذي قاد البشرية إلى هذا العصر، وهذا أمرٌ محال.
ولا أقول إنه لم يكن له أثر، لكن لا يمكننا الجزم، بسبب الطبيعة البشرية، أن ما حصل من تطور وإصلاح كان بسبب هذا النظام.

الديمقراطية... من ثورة إلى سلطة عمياء

هذا النظام لا يتصادم فقط مع الواقع الذي يشكل حاجزًا يحول دون تطبيق مبادئه بشكل تام،
بل هناك أمر أعظم يجعل منه نظامًا **غير عملي**.

هذا النظام كان في السابق **ثورة**، وقد أدى ما عليه،
لكنه الآن قد **انسلخ من هذا الثوب**، وأصبح غير عملي، ولا يرتقي إلى المستوى السياسي الذي نطمح إليه.

انظر إلى حال البشر الذين يتبنّون هذا النظام؛
نظام الشعب، وتحديد المصير بواسطة الشعب، دون وجود سلطة مطلقة.
كان هذا هو الغرض منه في الأساس.

لكن البشر وجدوا ثغرة جعلت من الممكن أن **يتحوّل هذا النظام إلى سلطة مطلقة**،
من خلال **احتكار** مجموعة من الناس **القبة البرلمانية**، التي تمثل نقطة الحكم ومنطلقه الأساسي.

فأصبحنا نجد أن **الديمقراطية لا تعمل مطلقًا**،
وأن من له الحق في إبداء الرأي فقط هم من يحكمون البلاد،
أما من يعيشون بها، فلا حق لهم سوى **الطاعة والخضوع التام**.

خدعة الشعب... باسم الشعب

لقد تم الأمر **بخطة محكمة**.
خطة عملت على **تغذية عقول البسطاء**، بأوهام،
أوهمتهم بها عقول الإعلام والشوارع، حتى **صار الشعب سهل الخداع**.

فعندما يريد من في السلطة إصدار قرار،
فلن يكون هناك اعتراض.
وإذا وُجد، فهو من قلة، لا يؤبه لها.

والأعجب من ذلك،
يقال إن السلطة بيد الشعب، وهو الحاكم، ولا غير ذلك.

لكن إن أراد الشعب أن يعترض على قرار،
وكانت السلطة، تحت اسم الديمقراطية، قد ذهبت باتجاه معين،
فإنها سترفض أي مقترح، وأي تدخل، مهما كان.

وإن جئت لتنتقدهم، بحجة أنهم خرجوا عن فكرة وأسس هذا النظام،
قالوا إنك **معادٍ وخائن**، ولا تستحق أن تعيش بينهم!

الأنظمة حيادية... البشر هم الفاعلون الحقيقيون

جميع الأنظمة، إن وُضعت بين أيدي أناس **أحرار**،
يمتلكون من المبادئ أجودها، ومن الأخلاق أرفعها،
فإن أي نظام سيعملون به سيكون **نظامًا حرًا لا يظلم فيه إنسان**.

نعم، قد تكون الملكية ظالمة في جانب،
وفي جانب آخر، متنفسًا للشعب إن أُحسن استخدامها.

وكذلك الديمقراطية وأنظمتها.
النظام الجمهوري، أو الملكي، أو البرلماني، أو مجلس الشيوخ...
كل هذه الأنظمة **يمكن أن تكون عادلة أو مستبدة**.

الأمر أشبه بخط الأعداد:
إما أن يتجه السهم من الصفر نحو الأعداد الموجبة،
أو يتجه نحو الأعداد السالبة.

المنطلق دائمًا هو **الشعب**.

هو الذي يحدد اتجاه هذا السهم.
هو الذي يحدد:

كيف تكون الأخلاق،

كيف تكون الأفعال،
كيف تكون القوة.

وقد يكون الشعب هو من **يصنع الأغلال** لنفسه،
أو يكون هو من **يكسرها**.

الديمقراطية في يد الجهلاء = فوضى

النظام الديمقراطي، حين يُطبَّق بين أيدي **حفنة من الجهلاء،**
لن ينتج عنه حرية مقنعة،
بل سينتج عنه **فوضى،**
تجلب **العناء والشقاء** لهؤلاء الذين جرّوا أنفسهم إلى هذا البلاء.

الزمن تغيّر، فهل ما زلنا ننتظر المعجزات؟

نحن في زمن اختلفت فيه المبادئ، وتغيرت ثوابتٌ ما كنا نعتقد أنها ستتغيّر أو تزول.

لكن ها نحن ذا، بني البشر،
نتحدى أنفسنا وتلك الثوابت، ونزيلها.

غير أن آثارها ستبقى.
لأنها **نتاج الطبيعة البشرية،** منذ البداية.

زوال **العبودية** بشكلها الظاهري لا يعني اختفاءها،
بل هي ما زالت،
لكنها **مؤطّرة بحدود جديدة**.

الأنظمة لا تكفي، نحتاج تغييرًا في الأفهام

نحن مجبرون، بسبب هذا التطور المذهل،
أن نبحث عن **نظام يزيد من هذه السرعة ويحافظ عليها،**
إن أردنا ألا تنهار.

ولا أعتقد أن **الأنظمة الحالية ستفي بالغرض،**
لأنها تستمد قوتها من **الشعب،**
وما زال الشعب في **جهل تام**.

لذلك، نحتاج إلى **نظام ينهض بوعي الشعب،**
ويُقلل من جهله،
حتى نستطيع أن نصل إلى **العناوين المهمة** التي ستساعد على ازدهارنا.

العمل... ضرورة لا رغبة

نحن نعمل لأننا **مجبرون على العمل،**
لا لأننا نرغب به.

أما أولئك الذين يعملون لأنهم وجدوا في أنفسهم **شغفًا حقيقيًا،**
فهم **قلة قليلة**.

ولا يمكننا أن نعتمد عليهم دومًا،
لأنهم إن وُجدوا في عصر، فقد لا يكون لهم أثر في عصر آخر.

فماذا نفعل حين يغيب هؤلاء؟
هل نبقى في **خمول وركود؟** منتظرين المعجزة؟

قطعًا لا.
يجب أن نُنتج نظامًا يجعل من **العمل أمرًا لا مفر منه،**
مدفوعًا بالشغف، لكن عبر **تغيير الأفهام**.

ولن نضيف شيئًا جديدًا...
غير أننا سنضيف شيئًا عظيمًا.

الأنظمة الاقتصادية(3-3)

إن للنظام الاقتصادي نفس القوة والتأثير التي يمتلكها النظام السياسي والنظام الديني، في تحديد الحياة الاجتماعية للناس. ولكن هذا النظام يختلف بكونه نتيجة لفكر محض يتبناه الشعب، وهذا الفكر يجب أن يكون نابعا من الأفكار الدينية والسياسية التي يتبناها الشعب.

ولفهم هذه المنظومة يجب علينا أن نجيب على هذا التساؤل:

من ينبع ممن؟

هل النظام السياسي هو نتيجة للنظام الاقتصادي؟ أم هو العكس؟

ولفهم هذا أكثر علينا أن نقر ونعترف أن **ليس هنالك نظاما اقتصاديا يمكن أن تسير به جميع البشرية**، وليس هناك نظاما سياسيا يمكن أن تسير به جميع البشرية. وهذا الأمر يرجع إلى نقطتين:

1. **الفكر المحض الذي يتبناه العقل العام للمجتمع**:

فإذا كان الفكر العام الذي يتبناه المجتمع يدعو إلى المساواة بين العمال والمدراء وجميع طبقات الشعب، فحينها سيكون من الصعب أن يوجد نظام آخر معارض لهذه النقطة، لأن الشعب يؤمن بهذه المبادئ.

بينما هناك مكان آخر حيث يؤمن الجميع بـ"السوق الحر" الذي يتيح الفرصة أمام الجميع لأن يكونوا بثروة ما، أو بفقر ما، حسب وجودهم في هذه السوق.

2. **الأفكار العقائدية التي تتبناها الشعوب**:

فإن الأفكار التي يتبناها الشعب الذي يؤمن بالمساواة بين كل الطبقات تختلف عن المبادئ أو العقائد التي يؤمن بها الشعب الذي يؤمن بالسوق الحر، ويؤمن بأن الفرد الذي يستحق المال الكثير هو الذي كان جهده كبيرا. أي أنه إذا كان يعمل بجد فمن المنطقي أن يحصل على القيمة الأعلى من الشخص الذي لا يعمل بجد.

وهذه نقاط شديدة الاختلاف عليها.

وكما قلت سابقًا، إن التقاليد أو العقائد الدينية لنفس الدين، تختلف من منطقة إلى أخرى بحسب اختلاف أفكار وعادات وتقاليد تلك المنطقة.

فلو جئنا إلى الدول المسيحية فإننا سنرى أن الدين المسيحي في دولة ما يختلف عن الدين المسيحي الموجود في الدولة الأخرى، وكذلك بالنسبة للإسلام، وكذلك بالنسبة لليهودية.

وهذا الأمر راجع إلى نقطة جوهرية:

وهي تحكم الاقتصاد والنظام السياسي بالفكر الديني حتى يكون مواكبًا أو مقبولًا للفكر الذي يتبناه ذلك الشعب.

فلو تعمقنا الآن في الدول الإسلامية، سنجد أنها مختلفة عن بعضها البعض.

على سبيل المثال، فإن هناك اختلافا جوهريا كبيرا بين الإسلام الموجود في إيران، والإسلام الموجود في السعودية.

وهذان يختلفان أيضا في الطريقة السياسية، وحتى في الطريقة الاقتصادية، رغم أنهما قد اجتمعا على نفس الدين، وهو الإسلام.

وحتى إن أتى شخص واعترض عليّ، وقال إن هناك فروقات طائفية، دعنا نذهب إلى دول أخرى تتبنى نفس الفكر الذي تتبناه الدولة السعودية، فسنرى أنها مختلفة اختلافا تاما في الفكر السياسي والتوجه السياسي عمّا تتبناه السعودية.

وحتى طريقة تطبيق الدين ستختلف.

نعم، هم يمتلكون نفس الدين، ونفس التوجه الديني، وربما نفس الطائفة العقائدية، ولكنهم سيختلفون، **لأن طبيعة الناس في تلك المنطقة تختلف عن طبيعة الناس في هذه المنطقة**.

وهذا هو جوهر الدين.

إنما طبيعة الناس هي الجوهر.

فإنه من الممكن، إذا غيّرنا طبيعة أناسٍ ما، فإننا سنغير دينهم، وسنغير من طريقة تفكيرهم، وسنغير من نظامهم السياسي، وسنغير من نظامهم الاقتصادي.

وهذه العملية تتطلب جهدًا جبارًا كبيرًا.

حاولت بعض الدول الإمبريالية عمل ذلك مع الدول التي استعمرتها، لكنها فشلت، لأنها حاولت أن تفرض ما لديها من ثقافة فكرية بالقوة.

وهذا لا يمكن، لأن الاعتقادات العقائدية لا يمكن أن تُفرض بالقوة.

وكلما فُرضت بالقوة ازداد النفور منها وعدم تقبلها، لأنها ستكون مختلفة متعارضة.

ولو رجعنا إلى فهم العقل العام لتلك المجتمعات، فإن محاولة فهم ذلك العقل، والتغلغل إلى داخله، وبث بعض الأفكار وتهديد بعض أساسات الأفكار السابقة، **هو الطريقة الصحيحة للتغيير في المجتمعات**، لا من خلال بث بعض العقائد الدينية.

هناك سلوكيات لم يستطع الدين أبدًا تغييرها.
لو أتينا إلى المنطقة العربية فإننا سنجد سلوكيات أتى الدين لمحوها ولم يستطع محوها، وما زالت إلى يومنا هذا ثابتة.
وكذلك بالنسبة إلى أوروبا، بعد أن أتاها الدين المسيحي، فإنه حاول أن يغير الكثير منها، ولكن أصبح الدين فجأة يدعمها، مثل شرب النبيذ والخمور.

في البداية أتت المسيحية حتى تحارب هذه الفكرة، ولكن بشكل أو بآخر أصبحت المسيحية تدعم هذه الفكرة.
هذا في باب، لأن هذا المجتمع لن يستطيع التخلص منها إلا عند **الولوج إلى داخل أساسات العقل العام لذلك المجتمع، وهدمها من هناك**، لا من خلال وضع معلومات أخرى تكون بالنقيض منها من دون أن تزيلها أو تمحوها، فإن الفكرة ستبقى قائمة.

إن العقل العام لهذه المجتمعات مبني على أسس ثابتة، أسس قديمة لا يمكن المساس بها.
وهذه الأسس يمكن فهمها والوصول إليها من خلال أمر واحد:
وهو النظام الاقتصادي لتلك المجموعة من الناس.

لا يمكنك أن تفهم هؤلاء الناس من خلال فقط النظام السياسي أو النظام الديني، لأن هذين النظامين سيكونان ملوثين.
ملوثان بماذا؟
ملوثان بأفكار سابقة وأساسات سابقة ستغير من الشكل النهائي لهذه المسائل.
ولكن لا يمكن أن تغير من طبيعة هذه المجتمعات الاقتصادية، لأن النظام الاقتصادي لتلك المجتمعات **ثابت لا محالة**.

حتى وإن أتى الدين، فإن الدين يجب عليه أن يواكب هذا الأمر، يجب عليه أن يواكب النظام الاقتصادي لذلك المجتمع الذي يتبناه.

على سبيل المثال: إذا أردنا الآن أن نفهم الطبيعة اليهودية، يجب علينا أن نفهم نظامهم الاقتصادي.
إذا أردنا أن نفهم الطبيعة العربية الإسلامية، يجب علينا أن نفهم نظامهم الاقتصادي.
وهكذا بالنسبة إلى جميع المجتمعات الموجودة.

ولن يستطيع أي أحد، أقولها صراحة، أن يوحد العالم تحت نظام اقتصادي واحد.
مستحيل، لا يمكن، أمر غير منطقي.
نعم، العالم بدأ يتقارب شيئًا فشيئًا، ويصبحوا بقرب عجيب غريب، وهذا ما حصل بسبب التطور التكنولوجي الذي حصل.
ولكن رغم وجود هذا التطور، فإنه من المستحيل أن يوجد نظام اقتصادي واحد، والذي بدوره سينتج ماذا؟
سينتج نظامًا سياسيًا متأثرًا بالنظام الاقتصادي، ونظامًا دينيًا متأثرًا بالنظام الاقتصادي.

إن البشر لديهم طبيعة ازدواجية في النفس بين أمرين لا يمكن الفصل بينهما، بل يجب أن يتم التوفيق بينهما:
جزء روحي، وجزء مادي.
فحتى يمكن أن نحصل على فكر تام أو كامل لهذا الإنسان، يجب أن تعطيه دينًا، وتعطيه نظامًا ماديًا اقتصاديًا، يكون متوافقًا بين الاثنين حتى نحصل على هذه الشخصية.

فلا يمكن التوفيق بين الاثنين من خلال دين يعارض نظامًا اقتصاديًا ـــ مستحيل ـــ أو نظام اقتصادي يعارض الدين.
يجب أن يتوافق الاثنان.

حتى لو كانت المبادئ والأسس التي يمتلكها دين ما، تتناسب مع طبيعة الشخص، ولكن في هذا الدين بعض الأسس والمبادئ التي تختلف وتتعارض مع الجانب المادي، فإن هذا الإنسان تلقائيًا، ومن دون وعي، سيتوجه إلى التوفيق بين الاثنين، من خلال:

إما التلاعب بتلك المبادئ حتى تكون متوافقة مع المبادئ الأخرى.

أو، في الكفة الأخرى، محوها وإضافة مبادئ أخرى تدعم الأفكار حتى تجعلها متوازنة.

لا يمكننا فهم النظم الاقتصادية والمعاملات البشرية، إلا من خلال فهم **المال**، وكيف تُعطى أو تُكتسب **القيمة المادية**.

لطالما راودتنا أفكار:
كيف لقطعتي ورق، تمتلكان بعض الرسومات، أن تكون لهما قيمة مختلفة عن قطعة الورق الموجودة في الدفاتر والكتب؟

لقد جعلني هذا التساؤل أفكر كثيرًا:
هل هي تمتلك قيمتها بذاتها، أم أن هذه القيمة مكتسبة؟
أي أن الورقة هذه بذاتها تمتلك القيمة لأنها اكتسبت القيمة، أم لا؟

والحقيقة ـــ وربما كما أردفت في رسالتي في التعليم ـــ أن البشر إذا آمنوا بقيمة شيء، فإنه سيكسب تلك القيمة.
إذًا، القيمة قائمة على الإيمان فقط.

هنالك بعض المواد التي تكون موجودة على الأرض، ولكن قيمتها تكون منخفضة بالنسبة إلى قيمة بعض المواد الأخرى.
ولكن هذه المواد قليلة القيمة **أهم من المواد غالية القيمة**.

على سبيل المثال: الذهب أغلى من الحديد، ولكن **قيمة الحديد التي نعتمد عليها في الحياة أغنى من قيمة الذهب**.
فإن الذهب لن يعطينا نفس المواصفات والإمكانيات التي يمتلكها الحديد.
وإن الحديد يمتلك مواصفات كثيرة جدًا تجعله مهمًا في حياتنا.
ولكن سعر غرام الحديد منخفض جدًا عن سعر غرام الذهب.

وكذلك بالنسبة إلى الأحجار:
عندما يمسك شخص حجر الكوارتز، فإن هذا الكوارتز ستكون له قيمة حسب اللون.
إذا كان لونه أحمر، فإنه أغلى من اللون الأصفر، وهكذا بالنسبة لبقية الألوان.

أما الألماس، الذي هو أغلى من الذهب، وأغلى الأحجار، فالحقيقة أن هذه القيمة **ليست بالفائدة التي يعطيها، بل بالقيمة التي حددها البشر من خلال إيمانهم بهذه القيمة**.

من خلال قلّة هذه المادة، وصعوبة الحصول عليها، فإنها ستكون أغلى وأعلى قيمة من دون بقية المواد.

ما أحاول إيصاله وإيضاحه أن البشر هم الذين يؤمنون بقيمة الأشياء. لو أخذنا هذه الورقة النقدية ـــ لنفترض الواحد دولار ـــ وأرجعناها ألف سنة، ثم أعطيناها

لشخص ما، فإن هذه الورقة لن تمتلك نفس القيمة، ونفس القوة التي نحن كنا نؤمن بها. فحينها لن نستطيع أن نشتري بها ما نشرب ونأكل، أو ما نلبس.

أردفت كثيرًا من المرات حديثًا مطولًا، كثير التشعب والالتفات، محاولًا إيضاح فكرة الإيمان ومدى تأثيرها في هذه الحياة. إن لم يؤمن الإنسان بشيء، لن يمتلك هذا الشيء الذي يؤمن به قوة إلا من خلال إيمانه به.

ويمكنك أن تأخذ هذه الرؤية وتعممها على بقية الأشياء. إذا آمن الشعب أنه إذا لم يُطع الظالم، فإنه سيموت من الجوع، فإن هذا الإيمان سيتحول إلى حقيقة.

إذا آمن شخص أن هذه الكتلة من الحجر هي إله يمتلك القوة، فإن هذا الحجر سيمتلك هذه القوة بالنسبة لهذا الشخص.

إيمان الناس بالشيء يُكسب الشيء جوهرًا مزيفًا أو يُكسب وهمًا.

كان الناس يؤمنون بأن هنالك اختلافًا طبقيًا بينهم، هذا الإيمان أسس تأسيسًا كاملًا للطبقات الاجتماعية. أما الآن، فيؤمن الناس ببعض الأمور وبعض الأشياء التي ربما ستنتهي في الأزمنة القادمة. ولكن في نفس الوقت ستنبثق بعض الإيمانات، ويبقى الإيمان موضوعًا غاية في التعقيد والتشابك.

أنا الآن، بدوري، إنسان أمتلك بعض الأمور التي أؤمن بها، وأُكسيها قوة حتى يكون لها وجود بالنسبة لي. لن أقول إن ما أؤمن به هو الحقيقة المطلقة، أو أقول إنني قد وصلت إلى الحقيقة المطلقة، وإنني أختلف عن بقية الناس، أبدًا. في مسألة الإيمان، ليس هنالك قطعية، كل الاحتمالات مفتوحة على مصراعيها.

من كان يؤمن أن الإله عبارة عن كتلة من الصخر، وتفتحت أفكاره، ولكن هذا التفتح الذي يكون بمستوى معين أوصله إلى أن الخالق ليس الصخر، إنما الخالق هو الشمس، وتفتح عقله مرة أخرى، ثم أصبح يعتقد أن الإله ليس الشمس، إن الإله أمرٌ آخر... لن يتوقف الإنسان عن الإيمان، بل إن إيمانًا ينفي إيمانًا، وإيمانٌ يولّد إيمانًا، وهكذا هي الحال بالنسبة للإنسان: لن يتوقف عن الإيمان.

وإيمان الناس غير المشروط هو إيمان خطير جدًا. قلت عنه سابقًا: هذا الإيمان الذي لا يكون معروضًا أمام المنطق، على الأقل، سيجعل من الشخص يؤمن بالأمور كغيرها من الظواهر، والحقيقة التي هي غاية في الخطورة والأهمية.

نعم، الإنسان يرى الأمور من حوله من خلال عينيه، يرى سماء، يرى أرضًا، يرى بيتًا، يرى شجرة. ولكن الإيمان يجعل ما يراه مختلفًا.

فإن ما يراه نعم، هو شجرة، ولكن طريقة رؤيته لهذه الشجرة مختلفة باختلاف الإيمان.

سينظر لها شخص حسب الإيمانات المترتبة لديه على أنها حطب، ويرى شخص آخر حسب إيماناته أنها تجلب له الأوكسجين النقي، وشخص آخر يراها على أنها نعمة أُنعِم بها، وشخص آخر يراها مصدرًا للنور والرقي، وشخص آخر يراها على أنها مصدر ثمر ينتفع به.

هي نفسها الشجرة، لكن طريقة رؤية الناس لها قد اختلفت.

فما أحاول إيصاله وإيضاحه أنَّنا مهما رأينا الشيء نفسه، فإننا لن نرى الشيء بنفس الطريقة، بل سنراه بطريقة مختلفة، طريقة تتناسب مع ما يترتب من إيماننا.

إيمان مجموعة من الناس بقيمة الأشياء يُكسب الأشياء قوة، لا يكسب القوة لذات الشيء، إنما يكسب طريقة رؤية الشيء. فإن الإيمان بقيمة الذهب لا يُكسب الذهب قوة لذاته، بل يُكسب طريقة مختلفة لرؤية الذهب.

فمن الممكن أنني أقتل من أجل هذه القطعة من المعدن. لماذا؟ لأن الإيمان بقيمتها أكسبنا رؤية مختلفة لها. فالإيمان بالشيء بالنسبة إلى إيمانه بأشياء أخرى... إيمان الشخص بالشيء مرهون بطريقة إيمانه بأشياء أخرى.

فأنا لا أؤمن بقيمة الذهب، أما غيري فقد يؤمن بهذه القيمة. مجتمعات قد قامت وهي تؤمن أنها على حق، ولكنها في يوم ما قد انهارت. لماذا هذه الحضارات أو المجتمعات انهارت؟ هل لأن الحق مرفوض؟ أم لأنها كانت على باطل؟ لكن طريقة رؤيتها كانت مختلفة.

إيماننا بالمال الآن بدأ يختلف عن الإيمان بالمال قبل سنين. نحن في المستقبل لن نؤمن بقوة الأوراق النقدية، ستفنى، ستنتهي، بل سنؤمن بقوة الأرقام الالكترونية، التي تكون موضوعة في بطاقات الائتمان على هيئة أرقام.

عندما أقول: أنا أملك رقمًا معينًا من المال، فإن هذا المال لن يكون بيدي ظاهرًا على شكل من الأشكال السابقة، أي على شكل معدن أو على شكل ورقة، سيكون مجرد تشفيرات رقمية.

وهذه العملية ستؤدي إلى نظام اقتصادي جديد، لأن النظام الاقتصادي القائم كان أساسه فكرة المال النقدي وكيفية العمل به. لكن الآن، تغيّر الوضع، أصبحت للعملات الرقمية عملٌ خاص بها، وستُعمم على بقية الأمور.

فإذا أردنا أن نفهم نظامًا اقتصاديًا جديدًا، علينا أولًا أن نفهم المال: أين سيكون؟ وحتما المال سيكون في الأرقام الإلكترونية. ستختلف معاملاتنا وتعاملاتنا، وحتى أقولها صراحة، حتى أخلاقنا ستختلف.

والكثير من الناس لا يفهم فكرة أنها تقرّب لنا حقيقة المال كونه لا شيء، مجرد فكرة نؤمن بها. سابقًا، كنا نؤمن بأنه بين أيدينا على شكل ورق، أما الآن، أصبح مجرد رقم.

وما كان له بداية، حتمًا ستكون له نهاية. لكن إيمان البشر محدود بحدود أفكارهم وقدراتهم العقلية. لن نستطيع أن نفهم الإيمان بشكل تام أو واضح، ولكن محاولة فهمنا لفكرة الإيمان توضّح لنا الكثير من أسرار هذه الحياة.

كيف لورقة نقدية، مجرد ورقة، عليها بعض الرسومات، وموضوع في أطرافها رقم، أن تجعلنا نقتل بعضنا، نأكل بعضنا؟ هل تكون حياتنا من أجلها فقط، وليس هنالك أي مسار آخر غير هذا المسار؟

وإن الدليل والبرهان على وجود الإيمان في هذه المسألة، هو حركة الدوافع النفسية: الشهوانية، أو الغضبية، أو حتى العاطفية، العقلية، نحو هذا الاتجاه المادي، من أجل هذا المال، من أجل هذا الورق.

فإن هذا التحريك النفسي، الذي يؤدي إلى القتل، والسلب، والنهب، والكد، والتعب، والبكاء، والفرح، لا يمكن أن يكون إلا نابعًا من إيماننا بها. فيجب أن نؤمن بوجودها لدى أنفسنا حتى تعمل. فإنها الإيمان، موجود، حتمًا موجود، لأنها لو لم توجد، لما تحركت الدوافع النفسية نحوها، لأن الإيمان بطبعه يؤثر على النفس بشكل مباشر، من دون أي واسطة.

فإن إيمان الإنسان بالمال يؤثر على النفس بشكل مباشر وحتمي.

وهذا إن دل، فإنه يدل على أن فكرة المال مسألة إيمانية.

ننفق كل الوقت الذي نملكه في هذه الحياة القصيرة، سعيًا خلف قوة آمنا بوجودها بيننا، فأوجدناها إيمانًا بيننا، ثم أصبح ما أصبح.

ولا شك أن الإيمان بالمال يختلف باختلاف العقائد والمبادئ التي يمتلكها الشخص.

فإذا كان الشخص -على سبيل المثال- يؤمن بأن هذا المال له ثلثه وربعه للفقير، فإن هذا الشخص أصبح يؤمن بهذه النظرية، طبقًا لفلسفته الحياتية، أو للمبادئ التي يتبعها. وحاول الدين، أو حتى الفكر العام، أن يضعوا فكرة خاصة تحدد إيمان المال.

فلذلك ستجد غالبية الأديان تؤمن بأن المال يجب أن يُخرج من بعضه للفقراء، وإلا سيُعاقب الإنسان بالفقر، وعدم الرفاهية، أو الراحة، سواء في هذه الحياة أو في الحياة الآخرة.

وكما أردفت سابقًا، فإن هذا التأسيس يعطي الإلزام بفعل الخير، من أجل الفائدة العامة. أما فكرة المال، وحركته ذهابًا وإيابًا، فمرهونة بفكرة الشخص الذي يؤمن ببعض الأمور العقلية التي تحركه ذهابًا أو إيابًا.

لذلك، فإن الأنظمة الاقتصادية، انطلاقًا من هذه الفكرة، ستكون مختلفة باختلاف البيئة، واختلاف الدين، واختلاف الأفكار. سيكون المال وطريقة التعامل به مختلفة.

ولكن، هنالك دائمًا أمرٌ ثابت، ليس ثابتًا بشكل مطلق، ولكنه يُعتبر من الأمور المُسلّمات بها. حتى وإن كان الإنسان يؤمن بدين ما، وهذا الدين يُحتم عليه بعض الإيمانات الخاصة بخصوص المال، فإن نفسه سترغبه بأمر آخر.

على سبيل المثال، إن الدين ينصح الإنسان أن يعطي من ماله للفقراء، وهذا أمر بديهي. وهذه إحدى التأسيسات التي يدعو إليها الدين، حتى يُخفف من الفقر، أو يُنزل من درجته بين المجتمع. لأن الفقر آفة، ويحتاج المجتمع التخلص منه. وكيف يتخلص من الفقر؟ من خلال إعطاء الفقراء ما يحتاجونه للعيش.

أقلها، فإن هذا الشخص لن يُسلم أي مال، ولن يُعطي أي مال، فقط لأنه يؤمن إيمانًا نفسيًا، أو أن إيمانه الديني لم يؤثر بشكل عميق في نفسه، أو أن إيمانه في الدين كان له رؤية مختلفة، ليست نفس الرؤية التي انطلقت منها.

الرأسمالية(3-4)

جوهر الرأسمالية هو تحقيق أقصى قدر من الرفاهية الاقتصادية من خلال الملكية الخاصة والمنافسة الحرة.
تقوم الرأسمالية على مبدأ أن الأفراد، وليس الدولة، هم المحرك الأساسي للاقتصاد؛ حيث يملكون وسائل الإنتاج ويتخذون القرارات الاقتصادية بناءً على المصلحة الشخصية، مما يؤدي إلى تحقيق المنفعة الجماعية عبر آلية السوق.

كما قلنا سابقًا، إن الأفكار التي تخرج من أفواهنا بعد أن سكنت طويلًا في خيالنا، وسرحت ثم سبحت بعيدًا في أحلامنا، ظننا أنها يمكن أن تكون في الواقع موجودة، وأن تأثيرها سيكون لا بد منه.
كنا نعتقد أن ما نراه في عقولنا، والذي يستند إلى بعض الأدلة التجريبية، سيحدث فرقًا متأصّلًا حين يُخرج إلى العلن. لكن هذا الأمر غير صحيح، وسنُصدم دائمًا بعجزنا عن تطبيق تلك التخيلات التي راودتنا.

الرأسمالية، وكل الأنظمة السياسية، وحتى الاقتصادية، وقعت في هذه المشكلة دائمًا: **مشكلة الرؤية العقلية المطلقة**.
فالرأسمالية، في جذورها ومبادئها، توهمنا بأننا سنعيش حياة مثالية، حياة طالما تخيلناها، حياة تجعل منا أناسًا فاضلين. لكنها في الحقيقة بعيدة كل البعد عن الواقع الذي أردناه.
في سعينا نحو تلك الرؤية، واجهتنا العقبات والعثرات، فسقطنا وأُرهقنا، ولم نصل إلى النهاية.

الفكرة التي تحرّكنا شوقًا إلى تطبيقها، والتي تأسرنا طبعًا، تجعل من الصعب إدراك أن ما نحاول تطبيقه غير صحيح، ولا يمكن أن يعطينا نفس النتائج التي تخيلناها.
الذي سيتضرر هو المجتمع، ونحن بالتبعية، لأننا غرقنا في الأفكار حتى لم نعد نعرف ما هي الحقيقة.
وعندما يأتي إلينا أشخاص يقولون الحقيقة، أن ما نحاول تطبيقه لا يمكن تطبيقه، فإننا نرفضهم بحجة أنهم لم يدركوا الفكرة أو لم يصل وعيهم إلى مستواها. وتلك هي مشكلتنا.

نغرق في بحر، لكننا لا نموت فيه. نظن أننا قد نجونا، لكننا ما زلنا نغرق ونغرق ونغرق. ولا أمل في الخروج.

ظنّ الكثير من العظماء أن الحل والخلاص في الرأسمالية، ومنهم **آدم سميث** وكذلك **جون ستيوارت ميل**. كانت رؤيتهم جميلة، وأُشيد بها. لكنها، ببساطة، لا يمكن أن تطبَّق على أرض الواقع.
وعندما أتى **كارل ماركس**، نسف هذه الرؤية بنقده اللاذع، النقد الاشتراكي للرأسمالية. كان نقده حارقًا، ماحقًا، قد أحرق كل أوهامهم وتخيلاتهم.

ولكي يتبيّن الأمر، سنذهب إلى الأسس التي تستند إليها الرأسمالية، وسنحاول فهمها واستيعابها حتى نعرضها على الواقع ونرى الأدلة على حقيقتها.
إن الشجرة التي تتساقط أوراقها في فصل الخريف، لا تفزع ولا تكون قلقة، لأنها أيقنت بالأدلة الحقيقية أن الخريف مجرد مرحلة، وستنقضي. قادم لا محالة.

المبادئ الجوهرية للرأسمالية

1. الملكية الخاصة

تعني أن الأفراد أو الشركات يمتلكون وسائل الإنتاج (مثل المصانع، الأراضي، الموارد الطبيعية، والأصول المالية)، دون أن تكون هذه الملكية للدولة.
ومن المنطقي ألا تحوز الدولة ما بناه الفرد وقوّمه، بأفكاره وماله.

تُعد الملكية الخاصة حجر الزاوية في الرأسمالية؛ إذ تُفسح المجال للأفراد لاستخدام مواردهم بطريقة تضمن لهم تحقيق منافعهم الخاصة التي يطمحون إليها.
ووصول الملاك إلى الغايات التي يسعون لتحقيقها من خلال ما يملكونه، سينعش الحركة المجتمعية، والتي بدورها تجلب الاستقرار السياسي.

الحرية الاقتصادية: تتيح الملكية الخاصة للأفراد اتخاذ قراراتهم الاقتصادية بحرية، دون تدخل مركزي، مما يؤدي إلى تنوع الابتكارات وتطور الأفكار.

تحفيز الاستثمار: عندما يكون للفرد الحق القانوني في استثمار ممتلكاته والاستفادة من عائدها، ينشأ دافع قوي لتطوير الأعمال وزيادة الإنتاج.

حماية الحقوق الفردية: تشكّل الملكية الخاصة جزءًا من الحقوق الأساسية التي تحميها القوانين والدساتير، مما يعزز الشعور بالمسؤولية الفردية.

لكن...

قد تؤدي الملكية الخاصة إلى **تفاوت في توزيع الثروة** إذا لم تصاحبها آليات لضمان العدالة، حيث قد تتراكم الثروة في أيدي قلة. وهذا راجع إلى طبيعة النفس البشرية الأنانية.

كما قد تؤدي إلى **استغلال الطبقات العاملة** وتركز الثروة على حساب العدالة الاجتماعية.
من المنطقي أن تزداد ثروة التاجر كلما ازداد عمل وتعب العمال، وليس باستطاعة العمال الوقوف ضد هذا، لأن المال ملك التاجر، وهم يعملون لديه.
وحين لا يقتنعون بنسبة ثروته إلى ثروتهم ويقررون التوقف عن العمل، فهذا لا يُشكل تهديدًا حقيقيًا للتاجر: رحل عامل، سيأتي غيره.

لكن المشكلة الكبرى هي حين يعمل **شعب كامل** على إعطاء ثروته لحاكم لا يستحق فلسًا منها.
شخص تزداد قوته وثروته بسبب الناس، وفي الوقت ذاته يخافون منه، كأنهم في غيبوبة يصعب الاستيقاظ منها.

2. السوق الحر والمنافسة

السوق الحر هو البيئة الاقتصادية التي تُحدد فيها الأسعار وتوزّع السلع والخدمات بناءً على تفاعل العرض والطلب، دون تدخل كبير من الدولة.
ولذلك فإن **الحاجة البشرية** هي التي تسير السوق الحر.

دعوني أشير إلى أمر:
جوهر الرأسمالية هو السوق الحر، والسوق الحر يُمثّل **رغبات الشعب**. وغالبًا ما تتجه هذه الرغبات نحو **الترف**.
فإن الإنتاج المادي البشري لا يخرج عن هذا الإطار، والخروج عنه لا يكون إلا تصرفات فردية لا علاقة لها بالسوق.
ولذلك، فإن مجمل العلوم الحالية تلبّي هذا المطلب: الترف.

ولكن، إذا كان الشعب **سفيهًا جاهلًا**، فسيجعل من السوق **مكانًا لصناعة الجهل والترف**.

المنافسة تُعتبر آلية أساسية تُحفّز الابتكار، وتدفع الشركات إلى تحسين جودة منتجاتها وخدماتها لجذب المستهلكين.

الدلالات الاقتصادية والفلسفية

تحديد الأسعار: في السوق الحر، تُحدد الأسعار من خلال تفاعل المستهلكين والمنتجين. وهذا يُظهر قدرة السوق على تنظيم نفسه.

الكفاءة والابتكار: تُشجع المنافسة على الابتكار والتجديد في المنتجات والتقنيات، حيث تسعى الشركات للتفوق.

تخصيص الموارد: تساعد السوق الحرة في تخصيص الموارد بفعالية، حيث يتجه الإنتاج نحو المجالات ذات الطلب العالي.

التحديات والانتقادات

يمكن أن تؤدي المنافسة الحرة إلى احتكارات إذا استطاعت شركة واحدة أو مجموعة من الشركات السيطرة على سوق معين، مما يُعيق المنافسة الفعلية.

عدم تدخل الدولة قد يؤدي أحيانًا إلى تجاهل بعض الفئات الضعيفة في المجتمع، إذ قد لا يتم تلبية احتياجاتها إذا لم يكن لديها القدرة الشرائية الكافية.

3 . الربح كمحفز أساسي

المفهوم والأساس

يُعتبر الربح الدافع الرئيسي وراء الأنشطة الاقتصادية في النظام الرأسمالي. إذ يسعى الأفراد والشركات لتحقيق أرباح مالية من خلال استثمار مواردهم وتحويلها إلى

سلع وخدمات ذات قيمة.
هذا السعي نحو تحقيق الربح يُشكّل المحرّك الأساسي للتطور الاقتصادي والنمو.

الدلالات الاقتصادية والفلسفية

الحافز للاستثمار: الربح يدفع أصحاب رؤوس الأموال إلى استثمار أموالهم في مشاريع جديدة، مما يعزز الابتكار ويسهم في خلق فرص عمل.

تحسين الكفاءة: البحث عن الربح يدفع الشركات إلى تحسين عملياتها، تقليل التكاليف، ورفع جودة المنتجات لتظل قادرة على المنافسة.

دور السوق: الربح يساهم في تنظيم السوق، إذ يُوجّه الاستثمارات نحو القطاعات الأكثر ربحية، مما يُعزز الكفاءة الاقتصادية الشاملة.

التحديات والانتقادات

التركيز الشديد على الربح قد يؤدي إلى إهمال الجوانب الاجتماعية والبيئية، مثل حقوق العمال أو الحفاظ على البيئة، والتي تُترك غالبًا في دائرة الاعتبارات الثانوية.

السعي المستمر لتحقيق الربح قد يفتح المجال لأوجه من الاستغلال في علاقات العمل، حيث تُضغط الشركات على العمال من أجل زيادة الإنتاج على حساب ظروفهم المعيشية.

4. التدخل الحكومي المحدود

المفهوم والأساس

في نموذج الرأسمالية الكلاسيكية، يُفترض أن الدولة يجب أن تتدخل بأقل قدر ممكن في شؤون الاقتصاد، حفاظًا على حرية السوق ومنعًا من إعاقة النشاط الاقتصادي.
يرتكز هذا المبدأ على الاعتقاد بأن السوق يمتلك قدرة ذاتية على تنظيم نفسه وتحقيق التوازن بين العرض والطلب.

الدلالات الاقتصادية والفلسفية

حرية النشاط الاقتصادي: التدخل الحكومي المحدود يُهيئ بيئة تجارية حرة، تسمح للشركات والأفراد باتخاذ قراراتهم دون قيود تنظيمية مفرطة.

ضمان حقوق الملكية: من وظائف الدولة الأساسية في هذا الإطار حماية حقوق الملكية، وتوفير نظام قانوني يُنظم العقود ويضمن المنافسة العادلة.

التدخل عند الحاجة: رغم الدعوة إلى دور محدود للدولة، يُقرّ هذا النموذج بضرورة التدخل في حالات الطوارئ، أو لمواجهة الاحتكارات، أو لتوفير شبكة أمان اجتماعي تحمي الفئات الأضعف من الإقصاء.

التحديات والانتقادات

قد يؤدي التدخل الحكومي المحدود إلى ضعف الحماية الاجتماعية، إذا لم يُرافق بسياسات إصلاحية عادلة وداعمة.

هناك جدل دائم حول حدود هذا التدخل؛ ففي الرأسمالية الحديثة، بات تدخل الدولة أكبر مما كان عليه في النموذج الكلاسيكي، مما يثير تساؤلات حول التوازن الدقيق بين حرية السوق والتنظيم الحكومي.

النظام الشيوعي(3-5)

يُعد النظام الشيوعي من أبرز الأنظمة السياسية والاقتصادية التي ظهرت كرد فعل مباشر على الظلم الطبقي الناتج عن الرأسمالية. يطمح إلى إقامة مجتمع بلا طبقات، بلا ملكية خاصة، حيث تسود المساواة الكاملة في الحقوق والموارد.

وقد ارتبط ظهوره وتطوره بالفكر الماركسي الذي مثّله كارل ماركس وفريدريك إنجلز، ثم تطور لاحقًا في صيغته التطبيقية تحت ظل لينين وستالين في الاتحاد السوفيتي. لذلك، يمكن القول إن النظام الشيوعي مرّ في مرحلتين: مرحلة نظرية وأخرى عملية، وقد شهدت المرحلتان الكثير من المشاكل والتقلبات التي جعلت من هيكلية النظام بالشكل العملي مختلفة عن هيكليته في الشكل النظري. وسنشرح ذلك في المواضيع القادمة.

الأسس الفلسفية للشيوعية

المادية التاريخية (Historical Materialism)

ترتكز الشيوعية على النظرية المادية للتاريخ التي صاغها ماركس، والتي ترى أن تطور المجتمعات البشرية تحكمه الصراعات الطبقية الناتجة عن التحكم بوسائل الإنتاج. يقول ماركس في مقدمة كتابه "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي":

"ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل على العكس من ذلك، وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم."

يمثّل هذا التفسير المادي للتاريخ أحد أهم المنعطفات الفلسفية في فهم تطوّر المجتمعات البشرية، حيث ينطلق من أن النظام الاقتصادي هو البنية التحتية التي تُشكّل الوعي الجمعي، بما في ذلك الدين، السياسة، والثقافة.

غير أن هذا الطرح واجه نقدًا فلسفيًا عميقًا من تيارات فكرية متعددة، ترى أن الدين والفكر الأخلاقي هما أصل البنية، وليس نتيجتها.

يفترض ماركس أن الإنسان يتحرك بدوافع مادية بحتة. لكن الواقع يكشف أن السلوك الإنساني محكوم أيضًا بما هو غير مادي: القيم، المبادئ، الدين، والشعور

بالمعنى. فالجائع قد يمتنع عن السرقة بدافع ديني، والمضطهد قد يضحي بنفسه من أجل مبدأ لا يحقق له أي مكسب مادي.

أنت لا يمكنك أن تنظر لحقيقة واحدة وتغضّ النظر عن الحقائق التي تعارضها. "كل ما هو إنساني لا يمكن أن يُفسر بالاقتصاد فقط." وهذه هي الحقيقة كما يجب أن تُقال.

الدين ليس أداةً بيد الطبقة الحاكمة كما اعتبره ماركس "أفيون الشعوب"، بل قوة مستقلة تحكم على الأنظمة وتضبطها أخلاقيًا. الأديان الكبرى ـــ كالإسلام والمسيحية والبوذية ـــ تضع قواعد صارمة للملكية، العدالة، والرفاه، بل وتدخل في أدق تفاصيل المعاملات.

مثال: الإسلام حرّم الربا، وفرض الزكاة، ومنع الاحتكار، ما يدل على أن النظام الاقتصادي لا يمكن فصله عن المرجعية الدينية. كما أن نمو الدين من الناحية الاجتماعية لا يعني تحوّله إلى نظرية اقتصادية، لأن في النهاية الفهم هو الذي يتبع ـــ حتى لو أسيء أو حُرّف ـــ أما عن المبدأ فإنه يبقى كما هو.

شعور الإنسان بالرغبة الملحة لإيجاد جانب روحي يعادل الجانب المادي يجعله في غمار رحلة متعبة، غاية في الخطورة والهفوات. **"ما يقتلني يزيدني قوة."**

لا يمكن لأي نظام اقتصادي أن يستقر دون أن ينال شرعية أخلاقية أو دينية. حتى الأنظمة الاستبدادية تسعى لتبرير أفعالها عبر خطاب ديني أو وطني. لأنك في النهاية لا يمكنك أن تعامل البشر ككل بشكل مادي، لأن أخلاق المجتمع متأرجحة بين المادية والروحية. لا تستطيع أن تتعامل معه بأحد الجانبين فقط، لأن هذا سيؤدي إلى ضياع الفكرة وعدم ترسخها في الأذهان.

أستطيع إقناع الشخص المقابل بسذاجته من خلال عرض الفكرة عليه بالجانبين. لذلك، لا يستطيع النظام السياسي أن يبرر الهفوات التي يقدم عليها إذا لم يملك دعمًا روحيًا كافيًا يبرر ما حصل.

مثال: انهيار الشيوعية السوفييتية لم يكن فقط بسبب الفشل الاقتصادي، بل لغياب الشرعية الأخلاقية والدينية في نظر شعوبها.

الفكر الإنساني يصوغ رؤية العالم، ويحدد ما هو عادل أو غير عادل، ممكن أو غير ممكن ـــ حتى لو كانت هذه الأمور نابعة من مجتمع لا يفقه الحقيقة بشكل كامل وواضح.

من هنا، يصبح الفكر هو ما يحدد نوع النظام السياسي والاقتصادي المقبول.

مثال: إذا كان المجتمع يقدّس الحرية، فإنه سيرفض أنظمة العبودية أو الاستبداد، حتى لو كانت اقتصادية مربحة. والشعب الذي يقدس العبودية وتمطر على رأسه الحرية، سيرفع المظلة حتى لا تصله الحرية!

قل ما شئت بحق الناس، ولكن لن تستطيع أن ترفض المبادئ التي يعيشون بها.

الشعب لا يرضخ لأي نظام إلا إذا شعر بأنه منسجم مع قيمة ذلك النظام. فالحرية، والعدالة، والحق تُعتبر مقاييس أعلى من الإنتاج والتوزيع.

مثلما هو رفض "المادية الأخلاقية" التي آمن بها الرأسماليون، لا يستطيع أحد أن ينكر الجانب الروحي للإنسان، حتى لو لم يؤمن بجوهر ذلك الجانب.

النظام الاقتصادي لا يُطبق تلقائيًا، بل يحتاج إلى غطاء أخلاقي يجعله مقبولًا. فالدين أو المرجعية الفكرية تؤدي هذا الدور، لأنها تحدد المسموح والممنوع.

رأى غلام أباه يضرب حمارًا، فاستغرب الفتى من صنيع أبيه وقال له: "يا أبي، ألست تعلّمنا أن إيذاء الحيوان خطيئة؟ فلماذا أراك تضربه؟" وحتى يبرر الأب فعله، احتاج إلى غطاء أخلاقي يبرر ما فعله، فقال: "أنا أضربه لأنه عاصٍ، وإن العصا لمن عصى."

لا يكفي أن يكون النظام الاقتصادي فعالًا ومربحًا، بل يجب أن يكون مشروعًا من منظور فكري وأخلاقي. فالشعوب لا تخضع للمادة وحدها، بل لما تراه حقًا وعدلًا وكرامة. ومن هنا، يظهر الدين والفكر كسلطتين فوق الاقتصاد، وكمصدرين أساسيين للشرعية والاستقرار.

إن التفسير المادي للتاريخ يقلل من شأن الإنسان، ويختزل وعيه في الحاجات الجسدية، بينما الحقيقة أن الإنسان كائنٌ يطلب المعنى قبل الخبز، والعدالة قبل الربح، والشرعية قبل الطاعة.

لا يمكن أن نحرك الإنسان للعيش دون أن نوجد له نظامًا روحيًا يعيش به بجانب النظام المادي. أي أنك لن تفعل ما تفعل إلا إذا كان الدافع ماديًا أو أخلاقيًا.

الدافع المادي يحتاج إلى محفز مادي. لكن هناك بعض القضايا التي ميزتنا نحن البشر، ليس لها دافع مادي، بل إن دافعها أخلاقي. وإن استأصلت هذا الدافع، لن يفعل ذلك الأمر أحد مرة أخرى.

مثال توضيحي: شخص غريب يدخل قرية، يسأل عن مكان البئر حتى يروي عطشه. فإن كان الدافع لدى جميع سكان القرية ماديًا، فلن يدله أحد على بئر الماء إلا صاحب البئر حتى يكسب منه المال. **بئس ما تفعلون.**

عندما أعترض على الفكرة المادية التي يطرحها كارل ماركس، فإنني لا أقصد الإساءة أو الاستخفاف به كما يفعل كثير من النقاد المعارضين عديمي العمق، وإنما غايتي هي:

إما إصلاح فكرته إذا كانت تحتاج إلى الإصلاح، أو نفيها إن كانت خاطئة بشكل تام.

حتى لو اختلفنا في أساس البشرية: هل هو مادي أم لا؟ فإننا جميعًا نضع المصلحة الإنسانية في المقدمة، محاولين إيصال البشر إليها. وسنستمر جميعًا في هذا المسعى، حتى لو اختلفنا في الأسس والأفكار، فإن **مبدأنا الذي منه انطلقنا سنبقى محتفظين به.**

إلغاء الملكية الخاصة

الشيوعية ترى في الملكية الخاصة جذور كل أشكال الاستغلال، لذا تدعو لإلغائها وتحويل وسائل الإنتاج إلى ملكية جماعية.
هذه الرؤية كانت ردَّ فعلٍ طبيعيًّا على الظلم الناتج من امتزاج الأنا بالقوَّة التي يمتلكها الفرد؛ فيذهب ليذلَّ كلَّ شخص لم يمتلك ما امتلكه هذا الإنسان.
وليتبادر في ذهنكم أن الإنسان المُترف مسكين، غارق بين ما عرفه من حقائق محيطة به، لم تجلب له ما يكفي من المعاناة حتى يفهم بعض ألغاز هذه الحياة.

"الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج تجعل العامل مغتربًا عن نتاج عمله، عن ذاته، وعن مجتمعه."
— ماركس، المخطوطات الاقتصادية والفلسفية.

هو يعمل العمل حتى يحصل على رُبع قيمة الأمر الذي عمله. دعونا نراها بهذه الصورة: ظاهر هذه الصورة سيُجلُّ من المالك وحشًا، والعامل مسكينًا.
ولكن هذا العامل لم يُوضع سيفٌ على عنقه ليعمل فيما ملكه ذلك المالك.

بيت القصيد، أن العامل بقي عاملاً يتقاضى ربع كلفة ما يُنتجه لأمرين:
إما أنه لم يملك ما يكفي من المادة التي تتيح له أن يكون العمل ممكنَ الحصول،
أو أنه ضيِّق الفكر، لا يقدر على أن يوصل سلعته إلى السوق بشكل سليم.

ديكتاتورية البروليتاريا

مرحلة انتقالية ضرورية، حسب ماركس، تُمارَس فيها السلطة السياسية من قبل الطبقة العاملة لإزالة آثار النظام البرجوازي.
يُعتبر أمرًا طبيعيًّا حينها بسبب تسلّط الملاك على العمال:

"إن الطبقة العاملة لا تستطيع أن تكتفي بالسيطرة على آلة الدولة البرجوازية، بل يجب أن تحطمها."
— ماركس، بيان الحزب الشيوعي.

إن بالون الفقراء الذي يكون بين أيدي الأغنياء، رغم اتساعه لكل ذلك الهواء الذي يدفعه الأغنياء،
فإن اتساع ذلك البالون سيصل إلى حدِّه، وبسبب جشع وقلة إدراك الأغنياء لسعة البالون،
سينتهي الأمر بانفجاره في وجه الأغنياء.
عدم فهم الأغنياء لمعنى القوة الحقيقي سيجعلهم بهذا الموقف مرارًا وتكرارًا،
كأنهم -لشدة غبائهم- لا يقدرون على إنهاء هذه السلسلة المذلّة التي دائمًا ما تنتهي بذلّتهم.

وأكثر ما يؤلم في هذه المسألة أن انفجار البالون لن يشكّل للشخص سوى خسارة للهواء والبالون نفسه،
ولكن خسارة البالون لنفسه أكثر من خسارة الغني للهواء، لأن نتيجة انفجار البالون هو تمزقه بشكل تام وتشوهه بالصورة التي تحول دون رجوعه أو الاستمرار.

لقد مثَّل النظام الشيوعي محاولة فكرية جريئة لتصحيح مسار التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وتحقيق المساواة المطلقة بين البشر.
ورغم فشل تجربته التطبيقية في القرن العشرين، إلا أن أفكاره ما تزال حاضرة بقوة في أدبيات العدالة الاجتماعية والنقد الاقتصادي،
مما يُبرز استمرار تأثيره في الفكر السياسي المعاصر.

وفي دورتها اللامتناهية، يستمر البشر بإيجاد الحلول للمشكلات.
وفي الجانب المادي، تُوضع الكثير من النقاط الواهمة، المستحيلة الثبات في الواقع بالذات.
واستمرار الإنسان بالمضي نحو إيجاد الحلول للمشكلات بمنهجٍ عقليٍّ بحت، يجعل من التطور يعتمد على كثرة البشر، لا سرعة الإنتاج.

التطور الحاصل هو نتيجة لازدياد عدد السكان، لا لأن البشر بدأوا بإيجاد نظامٍ يُغنيهم عن الجانب العقلي المطلق.
إذا كان في سالف الزمان عالمٌ واحد مسؤول عن الإبداع والابتكار في الكيمياء،
فإن اليوم هنالك مئات الآلاف، وغدًا بالملايين.
هكذا زاد رتم التطور، لا من خلال إيجاد منهج تحصيلي مختلف.

لا أريد أن أغدو في حياتي مثل باقي الناس، يعيشون الحياة لأنهم لم يجدوا غيرها ليعيشوا.
إن أهم مفاتيح هذه الحياة هو تحصيل الحكمة،
ولتحصيل هذه الحكمة علينا أن نتبع منهج الحياة.

ومنهجها هو أن تعيشها مثل رحلة؛ كل مكان تمر به ولست باقٍ فيه،
هذا يعني أنك رحّال مرتحل، وأن تنسى هذا الجوهر يُنسيك معنى العيش.

عندما أتفرغ من كتابة رسالة في إصلاح النفس، سأحزم أمتعتي وأرتحل لأكتشف الحياة، أتأملها.
لا أعلم ماذا حصل للفلاسفة في آخر العقود، انضووا في غرفهم لا يخرجون،
وجعلوا من أخبار السالفين الذين خاضوا رحلة الحياة أساسًا لحكمتهم.
هذه الحكمة التي نقلوها، لم يتذوقوها.

أن أعيش من أجل أن أفهم لماذا يجب أن أعيش هو المفتاح لكل شيء.
انشغال الناس بالدنيا جعلهم لهذا التساؤل لا يسألون.
والخير كل الخير للناس العظماء الذين مسكوا العصا وللرحلة انطلقوا.

كم أنت عظيم أيها المسيح، يا أعظم الرحّالة،
كان ينام الليل وهو لا يملك من هذه الدنيا شيئًا،
ويستيقظ بالصباح وهو لا يملك فيها شيئًا،
ولكنني متأكد أنه ليس هنالك أغنى منه.

علّمني هذا الرحالة العظيم أن ما تمتلكه في هذه الدنيا هي فقط **الظنون**.
أنت في ذهنك تعتقد أنك تملك بيتًا،
ولكن لو تأملت لوجدت أن تملّكك يملكك:
تخاف عليه، تهتم له، تبكي إذا ما حصل شيء له.

لم ولن تملك شيئًا، وحتى تصبح غنيًّا، عليك ألا تملك في هذه الدنيا شيئًا.

أعظم من ارتحل وبيده العصا هو موسى، سار وكأنه لم يَسرِ، وبات وكأنه لم يبت،
أفنى عمره للحكمة، فتحصّل منها الخير الكثير.

ما معنى العيش؟ على الإنسان أن يبدأ من هنا، ليقيس المسافات،
بين الأوهام التي يريدها، وما هو مطلوب منه في الحياة.

أريد أن أُحلّق بجناحين، لأن الوهم في داخلي قد رسم أجمل الرسمات،
كيف أُحلّق؟ كيف ترفرف جناحي؟
وقد أسرني هذا الوهم ولازمني حتى غرقتُ به،
ثم ظننته هو الحقيقة ذاتها.

يا لفَقري، وقلة حيلتي أمام قلة إدراكي وقلة حكمتي،
التي لا حلّ لها ما دمتُ غارقًا في القاع؛
قاع الجهل، الذي كلما زادت معرفتي، زاد إدراكي له.

ما أتعسني من إنسان، عرفتُ أمرًا من هنا، بنيتُ جبلًا هناك،
وقلت: أنا فوقكم، أنا أثبت من الثبات!

يا لغُروري، قد طغت الأنا عليّ، فأصبحت لا أرى الذات،
ولا أُبصر الحقائق من دون الذوات.

أنا نجم، نجم لامع اشتدّ بريقه، فظن أنه غير فانٍ.
فكلّما أرادت نفسه غرورًا، اشتدّ به اللمعان،
إلى أن أطفأ، وأدرك مدى ضآلته في هذا الفضاء،
وأن هذا الضوء الذي أصدره ووشّحه بالغرور،
لو لم يسقط على شيء ليعكسه،
ما كان ذا شيءٍ من الأساس.

اسمعوا يا أيها الكسالى في كل مكان،
إنما أنتم حُثالة لكل مكان، لأنكم خراب للمكان لا تعمّرونه.
ومن منكم اشتدّ عوده فاقةً يوم، فليقوّمه بروحه،
لأني أعلم أنك من النادمين.

ولكن حالة الكسل التي أنتم فيها،
هي التي تُعيق أن يكون الندم الذي أنتم فيه توبةً وصحوة في هذه الحياة،
وتحديدًا للمصير.

المصادر

- ابن سينا. الشفاء: الطبيعيات. تحقيق الدكتور محمود قاسم. دمشق: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1969.
- ديكارت، رينيه. تأملات في الفلسفة الأولى. ترجمة كمال الحاج. بيروت: منشورات عويدات، 1970.
- كانط، إيمانويل. نقد العقل العملي. ترجمة عبد الرحمن بدوي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005.
- شوبنهاور، آرثر. العالم إرادة وتمثلاً. ترجمة محمد عبد الرحمن بدوي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006.
- هوبز، توماس. الليفياثان. ترجمة حسن حنفي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.
- لوك، جون. رسالتان في الحكم المدني. ترجمة وتعليق: عبد الرحمن بدوي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1978.
- روسو، جان جاك. العقد الاجتماعي. ترجمة: أحمد زكي. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1954.
- روسو، جان جاك. مقالة في أصل التفاوت بين الناس. ترجمة وتعليق: د. حسين العجار. بيروت: دار الطليعة، 1983.
- كانط، إيمانويل. أسس ميتافيزيقا الأخلاق. ترجمة: موسى وهبة. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008.
- كانط، إيمانويل. ميتافيزيقا الأخلاق. ترجمة: د. فؤاد زكريا. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، 1983.
- رولز، جون. نظرية في العدالة. ترجمة: عزت قرني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001.

المقدمة 1
باب الاول 2
الدين 2
الفصل الأول 3
بزوغ الدين(1-1) 3
انطلاق الدين في الواقع البشري(1-2) 4
مشكلة الإيمان(1-3) 7
غموض المضمون(1-4) 10
الفصل الثاني 14
نموّ الدين(2-1) 14
تثبيت الجذور(2-2) 16
القرارات وتشكّل المصير(2-3) 18
القيم تحتاج إلى نظام(2-4) 19
مقاومة الحركة المضادة(2-5) 20
الهدم الفكري(2-6) 30
الصورة النهائية(2-7) 34
الفصل الثالث 38
البناء الديني(3-1) 38
تكوين حضارة دينية(3-2) 40
أولًا: الاستقرار 40
ثانيًا: الأرض المناسبة 41
ثالثًا: المنظومة الأخلاقية 41
مجتمع ديني(3-3) 46
التحول الدراماتيكي(3-4) 49
دين آبائي(3-5) 53
الصراع النفسي المزدوج(3-6) 56
الفصل الرابع 61
انحراف الدين(4-1) 61
المفهوم(4-2) 62
خصائص المفهوم: 62
المصداق(4-3) 65
خصائص المصداق: 65
فهم المصاديق وفشل التطبيق: 67
سوء فهم المفهوم(4-4) 68
اليد المقطوعة(4-5) 70
الفصل الأول 74
انبثاق السياسة(1-1) 74
رؤية الدين للسياسة(1-2) 77
سياسة الجمع(1-3) 82
الفصل الثاني 85
الإرادة والحرية(2-1) 85
القوة والفعل(2-1-1) 85
الحرية(2-1-2) 90

الإرادة(2-1-3) 94
العقد الاجتماعي(2-2) 100
العقد الاجتماعي: بين الفرضية الفلسفية والنظرية السياسية 100
أولًا: مفهوم العقد الاجتماعي 100
ثانيًا: العقد الاجتماعي بين الفرضية والنظرية 101
الفرق بين الفرضية والنظرية 101
ثالثًا: الاختلافات بين الفلاسفة حول العقد الاجتماعي 103
1. توماس هوبز (1588–1679): العقد الاجتماعي كأساس للسلطة المطلقة 103
2. جون لوك (1632–1704): العقد الاجتماعي كأساس للحقوق الطبيعية 104
الأنظمة السياسية(3-1) 111
النظام الملكي(3-2) 117
المبادئ الأساسية التي يقوم عليها النظام الملكي 118
الشرعية التقليدية والتاريخية 118
الشرعية الدينية 119
ثانيًا: الأسس الفلسفية للنظام الجمهوري والديمقراطي 122
ثالثًا: أنواع الديمقراطية 125
الأنظمة الاقتصادية(3-3) 130
الرأسمالية(3-4) 139
المبادئ الجوهرية للرأسمالية 140
1. الملكية الخاصة 140
2. السوق الحر والمنافسة 141
الدلالات الاقتصادية والفلسفية 142
التحديات والانتقادات 142
المفهوم والأساس 142
الدلالات الاقتصادية والفلسفية 143
التحديات والانتقادات 143
4. التدخل الحكومي المحدود 143
المفهوم والأساس 143
الدلالات الاقتصادية والفلسفية 144
التحديات والانتقادات 144
النظام الشيوعي(3-5) 145
الأسس الفلسفية للشيوعية 145
المادية التاريخية 145
إلغاء الملكية الخاصة 148
ديكتاتورية البروليتاريا 149
المصادر 153